في حضن الشيطان..

يعقوب مراد

في حضن الشيطان..

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٦

في حضن الشيطان: رواية / يعقوب مراد. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م.- ١٤٠ص ؛ ٢٤سم.

١- ٨١٣.٠٣ م ر ا ف ٢- ٨١٣.٠٠٩٥٦١ م ر ا ف

٣- العنوان ٤- مراد

مكتبة الأسد

الكاتب السوري يعقوب مراد.. من خلال بصماته الدامغة في الوجدان السوري.
وعبر تعقيب على سلسلته المميزة / في حضن الشيطان /.

بقلم: رحاب شبيب.

على مدى عصور تعرضت الأوطان للحروب والأزمات؛ والكثيرون اضطرتهم ظروفهم للهجرة إلى بلاد الاغتراب حاملين أحزانهم ولوعة الفراق في قلوب تنبض شوقاً وحنيناً للعودة قبل الرحيل..

فكان إيليا أبو ماضي وجبران خليل جبران وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وفوزي المعلوف والياس فرحات ورشيد سليم الخوري ووو... لتطول القائمة في حقبة زمنية سالفة، وبقي المهجر على مر العصور ينتج أدباء من نوع جديد ومتميز بقلوب ترفرف بحب الوطن وحناجر تغرّد الحنين ألحاناً تسطرها أرواحهم المتعبة بمداد الشوق.

ومن بلدي سورية التي تعاني مرارة الحرب الكونية الشرسة على مدى أربع سنوات؛ تكشّفت خلالها معادن الناس ولمع جوهر الأوفياء، سطع نجم أحدهم وانتثر بريقه ضياءً:

الكاتب والإعلامي والباحث الاجتماعي يعقوب مراد.. الذي أطلق جناحيه يحتضن الفضاء طائراً بلا حدود؛ مغرّداً بلا مقامات بلا نوطة بلا نهايات..

خلال سنين طويلة كان الرمز للسوري الإنسان قبل أن يكون الكاتب والباحث والإعلامي.. قيل عنه صديق الفنانين.. وعرّاب المحبة.. وكتبت عنه الصحف والمواقع السورية والعربية والسويدية.. وكتب عنه أصدقاؤه مزايا وخصال كانت شواهد حق في مسيرته المشرّفة له ولكل سوري..

هو ابن محردة البلدة المتربّعة على عرش الكرامة متوّجةً بإكليل الوفاء متّشحةً بثوب النقاء.. محردة التي استقى من ينابيعها معاني الشرف والوفاء واقتات من ربوعها معاني الجمال والإبداع لتثمل روحه بالحب والإيمان والرحمة.. هو ابن سورية التي غادرها منذ أكثر من ربع قرن إلا أنها لم تفارقه ولا ربع يوم.. غادرها مجروحاً مُلمّلماً أحزانه في قلبه المتعب لتفيض باقات شوقه حنيناً معطراً بعبق الياسمين؛ معمّداً بعذوبة بردى؛ صامداً كشموخ قاسيون...

على مرّ سنوات كان المثل الأعلى الذي نفخر به كسوري أصيل، تجلّت في شخصيته كل معاني الإنسانية بما تحمله من قيمٍ سامية، لم ينضب قلمه من مداد فاضت به روحه المُفعمة بحب الوطن ولم تتقهقر عزيمته أمام صعوبات غربته التي ذلّلها بثباته وعزيمته وصبره..

هو يعقوب مراد الذي حمل قلبه حقيبةً إلى كل مكان حطّت به قدماه، ليكون سفير الإنسانية الذي ينشر رسائل المحبة والتسامح والسلام، وسفير سورية الذي يحمل قضية وطنه في وجدانه راسماً بذلك الصورة الحقيقية لوطنه الأم على الملأ وبكل إخلاص..

لم تبعده المسافات عن سورية ولم تضعفه جراح الوطن فكان المقاوم بالكلمة، سلاحه صوته وقلمه، ودرعه ضميره وإيمانه وصبره..

كان ثابت الموقف؛ صلب الإرادة، أمام مغريات عُرضَتْ عليه بسخاء لاستخدامه كوسيلة من وسائل حقدهم وتحريضهم على وطنه، وأمام

اعتداءات ومحاولات النيل منه بالضرب ومحاولات القتل لإخراس صوت الحق في حنجرته، وما زاده ذلك إلا قوةً وثقة ووفاء للوطن.

تابع وطنه عن بُعد وكان المراقب والمتألم لوجع سورية وجراح أهلها؛ فزاده ألمه إصراراً للعمل بكل ما يستطيع على إنقاذ وطنه بكل ما أمكنه من قوة دون انتظار المقابل لعطائه ووفائه مكتفياً بما أعطته سورية ليردد في كل مناسبة قائلاً: سورية أطعمتني من خيراتها وسقتني من عيونها، هي التي علمتني مجاناً وعالجتني مجاناً وقدمتني للعالم إنساناً...

- كان سفره إلى تونس رغم كل المعوقات وكل الظروف ليشارك في مهرجان سبيطلة الدولي مسجلاً حضوراً سورية رغماً عن كل من عارض وجودها، ولم يتوقف عند هذا وتابع بكل ما استطاع وأثبت أنه من بلد الياسمين من بلد المحبة ومهد الحضارات، وكانت له صرخة تقهر كل متآمر حين كرمته إدارة المهرجان بقوس النصر الذهبي فأعلن على الملأ أنّ هذا التكريم لا يستحقه إلا الجندي السوري الذي صمد وحارب الإرهاب وقهر المحال.. وكان يصدح بصوته وهو على مقربة من جبل هو مقر للإرهابيين في تونس غير آبه لاعتراض وانزعاج الإداريين الراعين للمهرجان.. لتنتهي مشاركته ويعود إلى السويد متابعاً مهمته بالحديث عن منع السوريين من السفر إلى بلدان عربية؛ ودخوله بجواز سفر سويدي، وتنديده المستمر وانتقاده لحكومات عربية ساقها التآمر إلى الضلال عن وحدة التاريخ والحضارة والعروبة..

- ولم توقفه أيّة ظروف عن الاستمرار لينسى نفسه وهمومه ويكون همه الكبير إنقاذ الوطن بكل ما أوتي من إمكانيات.. وتجلى ذلك بمشاركاته في كل مناسبة تهدف إلى خدمة الوطن وبقائه.. ليكون حاضراً وداعماً بثبات وقوة السوري الأصيل.

- وتأتي سلسلته / في حضن الشيطان / التي أذهلت كل من تابعها بما حملته من أحداث ومفاجآت في رحلةٍ حمل بها هواجسه وخوفه وقلقه بحثاً عن حقيقة وأدتها أيادي الشياطين في رمال الباطل.. لتتكشّف أكثر شخصية هذا السوري بما تحمله من وفاء للوطن وتضحية والأهم من هذا ما تبيّن لنا من إنسانيته التي تجلّت بإخلاصه لأصدقائه وثبات قلبه أمام رهبة الموت الذي كان مصيره في حال تبين عدم صدقه من خلال أقسى امتحان ممكن أن يتعرض له الإنسان؛ فما كان إلا المُلْتَحف بمكارم الأخلاق بحفاظه على الأمانة؛ والمُكلّل بالوفاء الذي تُكنّه نفسه لمن عرفهم؛ والمُسيّج بالإيمان والحب الذي استقاه من بلدته محردة التي علمته معنى الصبر..

لم ينسَ ولا لحظة أنّ الإنسان موقف وهاهو سيد الموقف يسجل مجدداً وقفة رَجُل فذٍ بكل ما تحمله الرجولة من شيَم النبل والشهامة بحرصه على الأمانة رغم احتمال الموت في سبيل الوفاء.. وتكون مُحفزّه على التضحية مقولة شكسبير: أكون أو لا أكون.. لتأتي الأحداث وتُثبت حقيقة يعقوب مراد أنه بجدارة قرر أن: يكون... حتى لو كان الموت مصيره.. وتتالي الأحداث يفيض بما تختلج نفس كاتبنا من تناغم أحاسيسه الملوّنة ببياض السلام والمحبة؛ وبنفسج الألم والحزن المتماهي مع أرجوان الشوق وحُمرة الحب والعشق؛ والمُزركش بخُضرة الطفولة وبراءتها التي كانت واضحة في وجدانه؛ فكان إبداعه بتصوير الأحداث بكل عفوية وصدق من خلال براءة حملها ذاك الطفل الذي يسكن روحه؛ وبكل روعة وجمال من خلال ذكرياتٍ أزهرت روضته وأغدق عبقها أنفاسه..

ونتابع معه لتنكشف أهم ما حملته روح هذا السوري حين اكتشف أفراد تنظيم الهاربون؛ ومن غياهب قهره وتعبه تستفزه إنسانيته التي تملكت الروح والجسد؛ لتتردد في وجدانه ألحاناً تُبعثر في حنايا ذاكرته كل ما قهره وكل ما أفرحه وما دفعه إلى حب الحياة بكل متناقضاتها.. ثم

يتذكر مقولة الروائي الروسي ليو تولستوي: الكلّ يفكر في تغيير العالم.. لكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه.. ليفكر بمنظوره ويقول: حين يتواجد من يرغبون في تغيير أنفسهم ليتغير العالم من خلالهم، نعلم أنّ الإنسانية مازالت باقية في نفوس هؤلاء؛ وبذور الخير في قلوبهم بانتظار غيثٍ يُنعش رشيمها المُتشوّق للعطاء..

حين تعلم أنك كنت قطرات الغيث المُنْتَظر.. حين تعلم أنك كنت المستفز لإنسانية أحدهم.. تهون عليك كل المَشقّات وتنفض عنك غبار التعب وأنت تسمع صوت الضمير يصدح في وجدانك: عليك أن تستمر.. وكانت صرخته المدوّية التي هزّت وجدان كل الحاضرين: أريد أن أرى الشمس... عبارة لا تشرحها كلمات ولا سطور؛ فهي تحمل القوة والعزيمة وتشع بضياء الحق ووهج الحقيقة التي يبحث عنها بكل ما استطاع، ثم يأتي ربطه للشمس بسورية ه التي هي مهد الإنسانية ومنشأ الحضارات.. ويكون قراره الاستمرار والصمود والوصول إلى الحقيقة التي تجاوز حدود البحث عنها؛ فكان المُنقّب في مناجم الشيطان المُفحَّمة بضلال غيّه.. ليسطع ضياء ماسها كالشمس المشرقة من حلكة ليل طويل.. حقيقة ما يجري وما يُدبّر لوطنه الجريح الصامد.. حقيقة مؤامرات يمكن محو ظلامها بكشف خيوطها وإحباط مخططاتها..

قرأناه عبر أحداث سلسلة استمرت في كل جزء بمنحه المزيد من السمو والإرتقاء ليعلو قمة الهرم بآخر جزء منها.. ولم تبقَ إلا النهاية التي يحملها لنا كتابه الذي أعلن نشره قريباً؛ لتكون آخر خطوة لرفع راية الحقيقة مُشعةً كالشمس التي أراد رؤيتها؛ لتغمر بنورها قلوباً ضلّلها الباطل متنكراً بثوب ربيع عربي..

مع كل نجاح وتألُق نقول هل هناك أكثر؟؟ وماذا بعد؟

الكاتب يعقوب مراد.. أيها الصرح الباقي للإنسانية التي تحاول قوى الشر في الأرض طمس معالمها وتشويش صورتها وإمحاء قيمها... بكل ما حملته في وجدانك من قوة وتصميم ممتزجة بالرحمة والمحبة أوصلت لقرائك ومتابعيك رسالة تحمل في كل حروفها أمانةً قررت تأديتها ألا وهي: الحقيقة... حقيقة الحياة وحقيقة الواقع و الأهم حقيقة الإنسان كما يجب أن يكون وكما أهّله الخالق ليكون... ولأنّ فاقد الشيء لا يعطيه أقول: لولم تمتلك وتنعم بإنسانية خالصة ونقية من شوائب الزمن لما كنت أديت هذه الأمانة بهذا النجاح وبهذه الإرادة...

أيها السوري يعقوب مراد وصلتنا رسائل الخير والإنسانية من لبّ ضميرك بأمانة كبيرة وصدق نادر وإخلاص لا متناهي... وصرخة ضميرك أيقظت الضمائر وحفّزت العقول بقوة فكانت عزفاً لملحمة الحياة مع الموت.. ومع صدور الكتاب سيكون نجاحك قد تكلّل بالمجد الذي استقيته من بلاد المجد والكرامة.

حملتُ معي كلّ هواجسي وقلقي ومخاوفي على مايجري في بلدي، وجلست أشرح بإسهاب لصديقي السياسي السويدي المخضرم توماس .ك. بأنّ كل مايجري في سورية ليس له علاقة بالمجتمع السوري الذي نعرفه؛ وإنّ كل مشاهد الذبح والقتل والتكفير غريبة عنّا ومستوردة لفرضها على مجتمعنا المتسامح والمتعايش بكل طوائفه بمحبة منذ قرون طويلة، وسألته اذا كان يعرف شيئاً مما يجري في سورية ..؟؟

هزّ برأسه موافقاً، وقال بثقة: فتّش عن اليهود...

قلت له ساخراً: كانوا يقولون فتّش عن المرأة، وهاأنت تقول فتّش عن اليهود..

قال: أنت تريد معرفة حقيقة ما يحدث في البلاد العربية عامة، وسورية بشكل خاص، وأنا سأضعك في حقيقة الحقيقة، وسأُريك شيئاً مهماً جداً يؤيد كلامي. فتح مصنفاً كبيراً على مجموعة صور لنساء محجبات..

وسألني: من ترى بهذه الصور؟؟

قلت له: نساء مُحَجبات..

قال: هل تستطيع أن تحدّد ديانة وجنسية تلك النسوة ؟؟

قلت: طبعاً.. صور نساء مُحَجبات، وجنسيتهم عربية، وديانتهم إسلامية..

قال: أين يمكن أن تكون ألتُقطت هذه الصور؟؟ وأُعطيك احتمالين: السعودية أو إسرائيل؟..

ضحكتُ قائلاً: حتماً في السعودية؛ ولكن لماذا كلّ هذه الأسئلة؟! قال بهدوء شديد: هكذا تكون قد وقعت بالفخ مثل غيرك تماماً، حين تشاهد على

محطات التلفزة إسلاميين يفجرون ويقتلون باسم الدين لن يراودك أيّ شك بأنّهم فعلاً إسلاميون، ولكن في الحقيقة هم مجرد أدوات مثل الروبوت – الرجل الآلي – وأنّ هناك من زرع في رأسه أفكاراً تناسبه ليقتنع بها؛ وينفّذها وهو مقتنع بأنه يقوم بما يرضي الله الذي سيرضى عنه؛ وينال مكافأته في الحياة السماوية.. بينما في الحقيقة هو ينّفذ مخططاً سيئاً جداً يُحقّق مصالح الجهة التي جنّدته لذلك..

ولنعود قليلاً لموضوع الصور، وتحديداً صورة المرأة المُحجّبة المتّشحة بالسّواد،.. قد تُصيبك الدّهشة حين تعرف أن هذه الصورة في إسرائيل وليست في السعودية؛ لأنّ هذا الزّي يتبع بالأصل لطائفة يهودية متطرفة جداً تُدعى / الفرومكا /.

وتعيش على أمجاد شعب الله المُختار؛ ولهم مبادئ ومعتقدات وإيمان يقوم على تكفير وتحريم كل أنواع وأشكال التطور الإنساني، ويحرّمون الموسيقا والفنون والاختراعات؛ ويفرضون على المرأة هذا النوع من اللباس ويمنعونها من دخول المعابد ويعتبرونها عورة وبنص عقل أيضاً...

قلتُ له مستغرباً: ما هي حقيقة العلاقة مابين الوهابية واليهودية؟!! قال: لو أجرينا مقارنة مابين الفكر الوهابي والسلفي.. وفكر الفرومكا اليهودية؛ لوجدنا أنهما متشابهان تماماً، لابل هما بالأصل واحد.. والصهيونية التي سخرت الإرث التاريخي لليهودية هي التي خلقت هذه المجموعات المسلحة وموّلتها ووضعت على رأس كل مجموعة أميراً أشبه برئيس عصابة ينفّذ تعليمات ولا يناقش، وهم الذين يذبحون ويقتلون ويدمرون وينشرون الخوف والموت، ويتم تصويرها ونشرها بفخر وبطولة ليراها العالم كلّه.. وذلك بهدف الإساءة للدين الإسلامي بعدما قتلوا وهجّروا مسيحييّ الشرق لتبقى الديانة اليهودية وحدها المُسيطرة فيه، انظُر ماذا حلّ بالمسيحيين في العالم العربي ..؟ يتناقصون إمّا بالقتل أو بالتهجير، انظُر كيف يتم تشويه الإسلام في العالم وخاصة بعد الربيع

العربي؟؟.. أصبح المواطن العربي، وبدون أيّ حرج ينزل للساحات يُندّد ويلعن العروبة والأخوان المسلمين الّذين كانوا حتى بداية الربيع العبري هم ضمير العرب والمسلمين.

لو تأمّلت المشهد بشكل جيد؛ ستجد أنّ المُسلم الحقيقي تحوّل إلى موقع المُدافع عن ديانته ومعتقداته؛ في محاولة جادّة لتبرئة نفسه ودينه؛ مما يفعله من يستخدم الدين غطاءاً لأعمال تُسيء للدين بشكل عام.. وسترى أنّ الرابح الوحيد في العالم هم الصهاينة اليهود..

سألته: ولماذا لا يُنشر هذا الكلام في الإعلام السويدي والأوروبي؟؟ فضحك وقال: لأنّ الإعلام يهودي ياعزيزي..

قلتُ بأسف: هذه هي الحقيقة إذاً.. الإعلام في العالم يهودي والاقتصاد العالمي يهودي وزعماء العالم يهود أو موالين لليهود... فضحك ساخراً كعادته وقال: ليس بالأمر أيّ غلط أو خطيئة أن يدافعوا عن اليهود كمن يدافعوا عن المسيحية والإسلام ولكن الجريمة أن يدافعوا عن الصهيونية التي تتستر باليهودية لكسب تأييد العالم لتحقق حلمها الأزلي، وليس هذا فحسب يا صديقي، من يحاربكم اليوم هم الصهاينة ولكن بأدواتكم أنتم وبقادتكم أنتم ورجالكم أنتم؛ بعدما سيطروا على الزعماء العرب، وبتمويلكم أنتم؛ بعدما سيطروا على البترول والغاز العربي، وعلى قراركم العربي أنتم؛ بعدما سيطروا على الجامعة العربية، واليوم يسعون لتحقيق أحلامهم كاملة بإزاحة كلّ من يعترض طريقهم لتحقيق حلمهم الكبير/ دولة إسرائيل الكبرى..

وعدت أسأله: هاأنت تقولها صراحة أنّ اليهود هم عرابو الربيع العربي؟؟.. قال مصححاً : وهاأنت تُخطئ مرةً ثانية.. أنا قصدت الصهيونية، وهناك فرق كبير مابين اليهودية كديانة، والصهيونية كعصابة دولية تخطط بعقلية الشيطان وتنفذ بذكاء وخبث الثعلب.. ثم مدّ يده لجهاز الكومبيوتر وسألني: – هل تذكر نقاشنا حول اعتراف الصهيوني برنار هنري ليفي لتلفزيون

إسرائيلي حين قال: نعم إسرائيل بمخابراتها و جيشها تقف وراء ما يسمى بربيع الثورات العربية.

قلت: طبعاً أذكر؛ وقد كتبت بعد ذلك مقالة – عراب الثورات العبرية ..

قال : هذا صحيحاَ وقد تم تفويضه من قبل مؤسسة أمريكية أسمها: BUSINESS FOR DIPL

OMATIC ACTION وهذه المؤسسة تمّ تأسيسها بعد أحداث ١١ أيلول؛ تترأسها مجموعة من المؤسسات الاقتصادية الأمريكية الضّخمة في أمريكا؛ والتي يُسيطر على رأس مالِها اليهود... هدفها تغيير الأنظِمة العربية في شمال إفريقيا والشرق الأوسط لتنفيذ الشرق الأوسط الكبير كخطوة أولى بما يتلاءم مع مُخطّطاتها القادمة؛ مُعتمدة بالأصل على التجاوزات والمشاكل الاقتصادية والأمنية والسياسية التي غزاها الغربان طيلة نصف قرن، وتمّ إنشاء مطابخ في عدّة عواصم وهي: تل أبيب وبيروت وواشنطن وباريس ولندن والدوحة؛ وتمّ الاتفاق على التّضحية بالعميل الأضعف وهو الرئيس التونسي ومن ثمَّ العميل مبارك؛ وتمّ ذلك بالاتفاق مع قيادة الجيش في البلدين... وفي العاشر من يناير لعام ٢٠١١ أعلنت المنظمة بأنّها مع ما تُحقق في تونس تكون قد حققت هدفها الأول بنجاح والذي استمرَّ التحضير له مدة خمس سنوات كاملة..

بدأت إسرائيل تحصد مردود هذا النجاح وتعزّز مكانتها سياسياً ومالياً بالمليارات، فهي كسبت مليارات كعمولة؛ بعملية تحويل حسابات مبارك وزين العابدين؛ ولقاء مشاركتها بتغذية حرب ليبيا بمرتزقة من الصومال والسودان وغيرها وفتح سفارة لها في ليبيا واعتراف أحزاب الإخوان المُسلمين والسلفيين بوجودها والحوار معها علناً، وهذا ما كان مُحرّماً سابقاً..

وسألته: هل لك أن تخبرني بصراحة ماهي غاية الصهيونية من وراء الربيع العبري؟؟..

قال: بعد الاطمئنان بأنّ الجزء الأول قد نجح بأسرع مما كان مُتوقّع فقد بدأ تنفيذ الجزء الثاني من الربيع العبري والذي سيتم طرحه بعد التغييرات في العالم العربي واستلام أنظمة جديدة جاؤوا بها تحت اسم الربيع العربي وبرعاية القانون الدّولي للموافقة على مخطط الصهاينة بتكليف أشهر الخبراء القانونيين في العالم لوضع دراسة كاملة تُحدث تَغيُّراً جذرياً في الصّراع العربي الإسرائيلي.. ثمّ طلب مني أن أقترب من جهاز الكومبيوتر وأقرأ..

قرأتُ وليتني ما قرأت..

- **أولاً:** مُطالبة إسرائيل لمصر بردّ أملاك اليهود المصريين الّذين تركوا المدن المصرية منذ قيام دولة إسرائيل وقد حصلت على سندات ووثائق للعقارات والشركات من قبل حكومة مُرسي مؤخراً؛ الذي سلّمهُم كلّ ما يتعلق بهذا الموضوع..
- **ثانياً:** مُطالبة كل من الدول العربية التالية: مصر وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والسودان ولبنان وسورية والعراق والأردن والبحرين؛ بتعويضات قدرها /٣٠٠/ مليار دولار أمريكي عن أملاك حوالي مليون يهودي منذ عام ١٩٤٨ .
- **ثالثاً:** مُطالبة المملكة العربية السعودية بدفع تعويضات قدرها /١٠٠/ مليار دولار مُقابل أملاك اليهود في المملكة منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.
- **رابعاً** : مطالبة إيران بدفع تعويضات قدرها /١٠٠/ مليار دولار عن مئات القتلى والمفقودين من اليهود الإيرانيين دون معرفة مصيرهم حتى اليوم .

هذه الدراسة سيتمّ التصويت عليها في الكنيست الإسرائيلي؛ لتنفيذها وطرحها في الأُمم المُتّحدة؛ لتطبيق القانون الدّولي الذي جاء بزعماء الربيع العربي؛ الّذين سيجدون أنفسهم مُلزمين بتنفيذها..

قلتُ معلّقاً: يا إلهي ما هذا !!.. هذا فكر شيطاني، ولهذا يراهنون بكل ما يملِكون من قوّة إعلامية ومالية وعسكرية لإسقاط آخر الرجال المُحترمين!! زعيم أقدم عاصمة عربية مأهولة في العالم؛ وتعيين من وافق على شروطهم؛ وهو مازال في الخارج؛ ولكن هل يفهم العُربان ما معنى هذا؟؟؟ هذا يعني أنّ مجرد الاعتراف بذلك يكون اعتراف بحق لليهود في كلِّ البلاد العربية قبل المسيح والإسلام.. وأنّهم كانوا ضحايا، وليسوا معتدين ودُخلاء كسرطان غريب في الجسم العربي كما كنا ومازلنا نؤكد هذا لكل العالم..

قلت: إذاً هدفهم ليس المال، وإنّما الاعتراف بأنّهم السكان الأصليون للمنطقة قبل المسيحية والإسلامية؟..

قال: هدفهم الأزلي تفتيت وتهجير المسيحيين والإسلاميين من الشرق لتبقى اليهودية هي القوة الوحيدة المسيطرة، وسيتنازلون للفلسطينيين عن الأملاك اليهودية في العالم العربي مُقابل التّنازل عن حق العودة لفلسطين التي ستكون كلها دولة إسرائيل الكبرى..

وسألته: كيف يمكن لهم تحقيق ذلك؟؟

اعتدل في جلسته وتأملني مليّاً، وأشار بيده بحركة تدل على المال.. فقلت له: بالمال!!

قال: طبعاً.. إعلامياً ومالياً.. وهم أصبحوا أسياد الإعلام والمال في العالم.

قلت: ذكّرتني بقول: /.. كُلّ إنسان مؤمن هو فقط من يستطيع أن يفهم التوراة؛ وأنّ الآخرين يقرؤونه ولا يفهمونه../ هذه العبارة العنصرية جداً جاءت في كتاب الزوهار.. والتي تنمّ عن الاستخفاف بالآخرين وبعنجهيّة وغرور بالنفس باعتبارهم شعب الله المختار؛ ولعلّ ذلك يكمُن بما حقّقوه باستمرار نشاطهم وتزايد هجرتهم بمساعدة بريطانيا حتى أصبحوا قاب قوسين من حلمهم الأزلي بتحقيق الدولة الموعودة في فلسطين، وبعدما قامت الثورة الأمريكية بقيادة جورج واشنطن بدأ العطف ينصبُّ عليهم بشكل كبير وخاصة مع إعلان حقوق الإنسان في الولايات المتحدة لخدمة اليهود الذين وضعوا رؤوس أموالهم في خدمة النظام الأمريكي وكل حكوماته المتلاحقة؛ وأثمرت جهودهم بحلول عام ١٩٤٤ حين أصبح عدد الولايات الأمريكية ثلاثاً وثلاثين ولاية؛ فتمّ إصدار توصيات بتحقيق المطالب الصهيونية وإقامة دولتهم في فلسطين؛ ليكون هذا الكيان عبارة عن جسر يصل مابين المياة الدافئة والمحيطات لجعل المتوسط بحيرة صغيرة تقف إسرائيل على طرفه الشرقي وتضع قدراتها على قناة السويس فتكون بذلك الجسر الحيوي مابين الغرب والشرق، وإفشال كل محاولات العرب في الوحدة من أجل إقامة نظام عالمي جديد تقف إسرائيل على رأسه في الشرق الأوسط بعدّة مراحل..

قال: أحسنت وأصبت، وأول مرحلة كانت حكاية الدولار الأمريكي بالرقم ١٣ اليهودي.

فسألته: ما حكاية الدولار الأمريكي؟؟..

اقترب من لوحة مثبتة على الحائط بداخلها دولار أمريكي وأنزلها وفضّ بروازها وسحب الدولار ليمدّه على طاولة زجاجية قائلاً : قصة الرقم ١٣

P.PLURIBUSUNOM

ثلاثة عشر حرفاً ومعناها كلّنا واحد وترمز إلى مقولة من /.. التّشرذُم إلى الوحدة../، وهذا مكتوب على شريط في منقار النسر الذي يرتدي الزّي الأمريكي وقد بسط جناحية وأطلق ساقيه على الآخر من الدولار، وفي مخالب النسر اليُمنى غُصن زيتون عدد أوراقه /١٣/ ثلاث عشرة أيضاً، ومخالبه اليسرى تقبض على جعبة سهام عددها /١٣/ ثلاثة عشر سهماً أيضاً. وفوق النسر دائرة بشكل ميدالية تحمل ١٣/ ثلاثة عشر نجماً أيضاً وُتشكّل بمجموعها نجمة داوود.. وفي الجانب الأيسر لورقة الدولار صورة لهرم الجيزة في مصر لم يكتمل بناؤه...!! وعدد مداميكه بالطبع /١٣/ ثلاثة عشر مدماكاً، ومؤلفة من/٧٢/ اثنين وسبعين حجراً، وتابع قائلاً: أُنظُر إلى هذه الكلمة فإنّها تُفسّر ما تحدثت أنت عنه بالنسبة لإعلان استقلال الولايات المتّحدة

MDCCLXXVl

مباشرة تحت قاعدة الهرم يوجد تاريخ إعلان استقلال الولايات المتحدة ال/ ١٣/ الثلاث عشرة التي اتحدّت لتُشكّل نواة إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عامة بتاريخ ١٧٧٦-/٧/-٤- والولايات هي:/ فرجينيا – ماسويتش – مريلاند – نيوهاشاير – دويلاوير – ورد ايلاند – كارولينا الشمالية – كارولينا الجنوبية – بنسلفانيا – جيورجيا – نيوجرسي – نيويورك – كونكتيكت./. وفوق الهرم مثلث وفيه عين شعشانية تُراقب العالم من خلال دائرة نورانية كُتب فوقها عبارة من ثلاثة عشر حرفا وهي :

ANNUITICOEPTIS

ومعناه تم الاتفاق على بدء ما اتفق عليه..

وقد كتب على إطار / سبلة / تحت الهرم

NOVUS SECLORUM

وهي من ثلاثة عشر حرفاً أيضاً؛ ومعناه بالطّبع سيبدأ العمل به حين اكتمال الهرم، أي الجزء الناقص ويعني إسرائيل على قمته وهذا ما يُفهم من خلال النصوص التوراتية؛ وقد نوّه الإسرائيليون بأنّه سيُعرض على العرب انطلاقاً من أرض الأهرامات أن تتسيّد إسرائيل على الدول العربية في أراضي كنعان والكنانة مجتمعة..

THE GREAT SEAL

هذه الجملة موجودة أسفل ورقة الدولار؛ وتعني النقد الأعظم أو العملة الكبرى التي يُمثّلها الدولار بعد اتفاق وول ستريت في بريتون عام ١٩٤٤ وقد ساهمت المنظمات الصهيونية فيه؛ وأُعطي لهذا اللقب الماسوني الأعظم وهذا الرمز الذي يشير إلى الإله الذي يثقون به كما ينص الدولار

IN GOD WE TRUST

سألته باستغراب: ما هي حقيقة رقم١٣..؟ ولماذا يُصرّ اليهود عليه دائماً؟؟..

ممّا جاء في كتب اليهود التفسيرية السبعة وهي / التلمود – الزوهار – القبالة – الميركافا – سفريلتزيراه – نبوؤات حزقيال – البروتوكولات../ أن الرقم ١٣ يعني أسباط يعقوب وأولاده .، وبعد صلب المسيح؛ وشنق يهوذا نفسه فنقص العدد إلى ١١ فأُعيد تكوين المجمع الأول – السنهدرين – بانتخاب متياس ويوسف الذي يدعى باراسابا الملقب يوسفوس فأعيد بذلك العدد إلى ١٣ وهذا يُفسّر تمسكهم بالرقم ١٣ بشكل دائم..

قلت: ويبقى سؤال: هل فهمنا ما يجب أن نفهمه من التوراة؟؟ أو هناك مالم نفهمه ويكون كارثة؟؟..

تأمّلني وهو ينفضُ غليونه: مُمكن أن تتوقع شيئاً ما من أيّ إنسان كان؛ ولكن من الصعب جداً أن تتوقع ما الذي يمكن أن يفعله اليهودي . الصهيوني؛

لأنّه يُسخّر كلّ شيء وأيّ شيء كان من أجل ما يصبوا إليه؛ ضارباً بعرض الحائط كلّ القيم الإنسانية...

يتابع صديقي البروفسور السويدي كلامه قائلاً:

عندما تحرك ملك الآشوريين – سنحاريب – عام ٥٩٧ قبل الميلاد بحملة على المنطقة الشمالية، هدم أورشليم – القدس – وحطّمها، ثم عاد ملك الآشوريين نبوخذ نصر فحاصر أورشليم عام ٥٨٦ قبل الميلاد وشرّد شعبها وأخذ اليهود سبياً إلى بابل، ولكنّهم عادوا إلى أورشليم عندما سقطت الدولة الآشورية على يد حاكم الفرس – كورش – ونفّذ وعده، وهكذا يعتبر اليهود وعد كورش هو الوعد الأول ووعد بلفور الوعد الثاني..

قلت: وطبعاً اليهود لم ينسوا أيضاً ماحدث لهم على يد فرعون مصر، وقادة بلاد آشور وسومر ولما تعرّضوا له.. فبدأ تنفيذ حلمهم الأزليّ ببناء دولتهم الممتدة مابين النيل والفرات..!

قال: هذا أكيد على مر التاريخ.. فقد حاولوا مع نابليون ومع محمد علي وغيره، وهذا واضح تماماً في المعنى الحقيقي للعلم الإسرائيلي، الخط الأزرق من فوق ويرمز لنهر الفرات، والخط الأزرق من تحت ويرمز لنهر النيل، وما بينهما نجمة داوود وتمثّل حدود دولة إسرائيل الكبرى كما يحلمون ويرغبون؛ ولهذا بدأوا السّعي لذلك ضمن خطط مرحلية...

قلت: ولكن كيف يمكن أن يكونوا بهذه القوة ليحققوا كل هذا؟!..

قال: سخّروا كُلّ شيء وأيّ شيء مُمكن؛ وسيطروا على المال والإعلام.. وتحكّموا ووصلوا لفلسطين بعد بلفور.. وحتى الآن وبعد مضيّ أكثر من ستين عاماً مازالت دولتهم هي الوحيدة بالعالم ليس لها خريطة وحدود نظامية في الأمم المتحدة..

قلت: رائع.. هذا يعني بأنّهم لن يمكثوا طويلاً؟!..

ضحك وأشعل غليونهُ ثمّ قال: لاتفرح كثيراً يا صديقي.. كل الحكومات الإسرائيلية تعمّدت أن لا تثبت حدودها..

في حرب ٤٨ رفضت وحرب ٦٧ رفضت، وحرب ٧٣ رفضت، و٨٢ رفضت، ولمّا انسحبت من لبنان رفضت أن توقع على حدود ثابتة فكان انسحابها من طرف واحد؛ وحتى حدودها مع الأردن استخدمت فيه عقد أجار محصور في مدة زمنية..

قلتُ مستغربا: إن كانت تُردّد دائماً بأنّها تريد أن تعيش بأمان فما هو الهدف من ذلك؟..

قال: قلتُ لك منذُ قليل هي تريد دولة من الفرات للنيل؛ ولهذا هي وغيرها يخططون لمصلحتها،

سأشرح لك وجهة نظري...

أُنظر لمذكرات السفير السعودي بمصر أيام جمال عبد الناصر ستجد بأّنهم استقبلوا شاباً أسمر ذا شارب عريض بالسفارة الأمريكية، كان هذا الشاب هارباً من العراق بعد فشله في محاولة اغتيال رئيسه، دربوه وأعادوه إلى العراق وأصبح الرّجُل القويّ في العراق؛ وهو صدّام حسين، ثمّ ضحّت أمريكا برجُلها القويّ شاه إيران ليعود الخُميني إليها مُعلناً الدولة الإسلامية الإيرانية، ثم نرى ولأسباب مازالت مجهولة حتى الآن صدام حسين يُمزّق اتفاق الجزائر المشهور لتبدأ حرب العراق وإيران والتي استمرت حوالي عشرة أعوام أنهكت الجبهة الشرقية وعمّقَت خلافات عربية عربية؛ وأهمها: خلاف سورية والعراق وسط خوف خليجي، وتسلّل إسرائيلي لشمال العراق...

ثُمّ حدثت المسرحية الأمريكية التي لعبتها بشكل جيد السفيرة الأمريكية بالعراق، وتمّ بموجبها اجتياح صدام للكويت، وسيطرت أمريكا على الخليج بشكل عام، وطرد صدام.. واحتلال العراق..

وهكذا تمت التضحية بشاه إيران أولاً وبصدام ثانياً مُقابل سيطرة أمريكا وإسرائيل على كلّ منطقة الخليج سياسياً وعسكرياً واقتصادياً...

قلت: هذه المرحلة جاءت بعد انهيار المعسكر الشرقي.. وبهذا تكون أمريكا ضمنت أوروبا وروسيا ومنطقة الخليج؟..

قال: ولكنّ ماحدث في العراق بعد سقوط صدام كشف أوراقاً كثيرة؛ ونوايا أحقاد دفينة جداً؛ وسأُخبرك بالدليل وبالصور أيضاً...

قلت: الأحقاد الدّفينة؟.

قال: تماماً.. وهذا يفسّرُ ما حدث عام ٢٠٠٧ في أحد قصور صدام الفخمة؛ حيث تجمّع يهودٌ من جميع أنحاء العالم للاحتفال بعيد رأس السنة اليهودية في بغداد..

ولعلّ الكلمة التي أُلقيت باسم اليهود في العالم تُلخّص الحقد الدفين. وسألته عن الكلمة؟..

فقال: قرّر أغنى أغنياء اليهود في العالم الاحتفال بعيد رأس السنة اليهودية في العراق لهذا جاؤوا واجتمعوا في قصر صدام حسين بعدما حوّلوا القاعة الفخمة إلى كنيست يهودي بكلّ معنى الكلمة،

وقالوا: قبل ثلاثة آلاف عام؛ جاء أجدادنا اليهود إلى هنا عبيداً؛ وهانحن اليوم نعود أسياد المنطقة ولم يبق للتنفيذ سوى سورية ويتحقق حلم دولة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل؛ وهو الشعار الموجود على العلم الإسرائيلي..

وهاهُم اليوم ينتقمون من الآشوريين بشتّى السُّبل من خطف وتهديد وقتل لتهجيرهم، لأنّهم لم ينسوا ما حصل لأجدادهم، ولهذا استخدموا فرقاً مُدرّبةً بلباس

عربيّ للاغتيالات في العراق لتغذية الفتنة وتشويه سمعة العرب والعروبة والإسلاميين وبسط سيطرتهم بشكل يسمح لهم بتنفيذ ما يريدون من العراق وجيران العراق كسورية والأردن ومنطقة الخليج..

قلت: ولكن هناك حلقة مفرغة.. هم قد يكونوا وصلوا الفرات.. ولكن سورية عصيّة عليهم.. وتبقى شوكة لتحقيق هدفهم؟..

قال: هذا يُفسّر لماذا تمّ تحرُك بعض الأقليات وخاصة الكردية في منطقة القامشلي بدعم من داخل العراق؛ وحين فشلوا بإثارة ما خُطّط له تمّ الاتفاق على خطة جهنّمية للتخلُّص من شخصية كبيرة مثل رفيق الحريري واتّهام سورية باغتياله والضغط عليها لتخرج من لبنان؛ ومحاصرتها اقتصادياً وسياسياً وجرّها لاتفاق استسلام مع إسرائيل..

قلت مقاطعاً: ولكنّ الأسد كان ذكيّاً جدّاً حين استطاع التّخلص من هذا الحصار بانفتاحه نحو تركيا وفرنسا وبقيّة العالم لما يتمتّع به من مصداقية وذكاء ومحبّة شعبه له.. ويملك كاريزما ساحرة وجذّابة.. وما الذي حدث بعد ذلك؟!

قال: كانت الخطوة التالية مع انهيار الشيوعية.. كان لابد لأمريكا أن تبحث عن عدو.. ولتستطيع السيطرة على بقية الدول العربية؛ ولوصل المياه الباردة بالدافئة البحر الأبيض والبحر الأحمر بالمحيطات؛ وتحقيق الأمان لإسرائيل في حدودها التي تتمناها.. كان لابد من اعتماد الإسلام هو العدو الأول في القرن الواحد والعشرين تماماً كما كانت الشيوعية هي العدو الأول في القرن العشرين...

قلت مقاطعاً: ولهذا بدأت أمريكا مُغازلة الإسلاميين في العالم العربي!!؟

قال مؤكداً: طبعاً.. ولكن الغزل ليس حُباً كما هو متعارف عليه، وإنّما من أجل تكبير حجم العدو ومكانته حتى يصبح في حجم يستحق أن يكون العدو اللائق، وهذا ما يفسر اتصالات الإدارة الأمريكية بالجماعات الإسلامية

الموالية لها والاتفاق على أن تتصل هذه الجماعات بالجماعات الإسلامية الأخرى بطريقة غير مباشرة لمساعدتها في تحقيق أحلامها أيضاً للوصول إلى الحكم ولتنفيذ نفس السيناريو الذي نُفذَ في إيران والعراق ولكن بأسلوب آخر رغم أن الهدف هو نفسه...

قلت: أنت تُلمّح هنا بأن لأمريكا يد بالثورات الشبابية في كل من مصر وتونس وليبيا واليمن وسورية وغيرها من الدول العربية..

قال: أنا لا أُلمّح يا صديقي بل متأكد تماماً.. ولهذا تمّ التفريط بزين العابدين بعدما طلب من قائد جيشه تولي الأمر.. وحين بدأت الثورة بمصر بدأت عن طريق الغوغل والفايسبوك في الوقت الذي كان قائد أركان الجيش المصري في أمريكا وعاد مباشرة وتمت التّضحية أيضاً بمبارك رغم كلّ ما قدّمه لإسرائيل ولأمريكا؛ ولكن انتهى دوره كما انتهى دور بن علي وشاه إيران وصدام حسين، والآن سيفسحون المجال للحركات الإسلامية الأصولية بالصراع للوصول إلى السلطة، لأنّهم يعرفون بأنّ السُّلطة ستكون محرقتهم الأخيرة في ظلّ الأزمات الاقتصادية في العالم العربي، ومن لم تُسقطه الثورة أسقطوه عسكريا كما فعلوا في ليبيا..

قلت: ولهذا لم يتحركوا أو يعلّقوا على ما جرى في البحرين؟..

قال: أيّ مُخطّط على الورق يمكن أن يحدث له شواذ على الأرض.. تستطيع أن تكتب بأنّ ما جرى في البحرين كان مفاجأة غير متوقعة في الوقت الحاضر على الأقل لهذا باركوا التدخل الخليجي عسكرياً لإنهاء الأزمة أو تسكينها حالياً، وتركيز الاهتمام الأكبر على الدول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وعلى اليمن؛ لأنّها مَعْبر السفن نحو البحر الأحمر، ويريدون النيل وسيناء لتأمين الملاحة والسيطرة على إفريقيا كاملة وإخضاع سورية لتكمل حدود إسرائيل من النيل إلى الفرات...

وبعد الانتهاء من هذا المُخطَّط تكون الصهيونية العالمية قد وضعت يدها على العالم مروراً بأوروبا والخليج والشرق الأوسط وإفريقيا وبعدها يتم محاصرة نفوذ روسيا من خلال التفرغ لدور الشرق الأقصى...

قلت باستغراب: هل يمكن أن تكون هناك عقلية بهذا الحقد الدفين بالسيطرة على العالم؟!!

قال: نعم يا عزيزي..

فقد كتب آشير غينبرغ في عام ١٩٢٧ على شكل فتاوى في كتابه القرارات والوصايا والأحكام المتوجّب إتباعها ومنها:

- العمل على استخدام اليهود للحكام والصحفيين
- تسخير قوى العمال بالتجويع
- العمل على تقويض أركان كل دين
- انتهاج مبدأ الذئاب والغنم
- مراقبة عمل الصحافة والكُتّاب
- السيادة المالية لملاقاة الأديان
- البابا هو العدوّ الماكر والعمل على سحق الفاتيكان
- إخضاع الحكومات لقوة رأس المال وإقامة المقاصد والجمعيات السريّة عبر الملوك إلى الخيانة ، وجهل الشعب عندما تملك إسرائيل حقوق عدم ملاحقتها أو محاسبتها بفضل المال والخدام والقوة نستطيع السيطرة على كل شيء...

تبقى كلمة حرة لابدّ منها حين قلت له: يا صديقي كل هذا ممكناً وليس غريباً فقد تمّ كل هذا بعون الولايات المتحدة التي تُبرّر جرائم إسرائيل دون أي تحفُّظ..

هذه الدولة التي تقوم على أساس لاهوتي - وثَني - وتُسميه ديمقراطية.. إنّ حق القوة هو باطل.. وباطل القوة طاغ.. وإن الحيتان بعدما تشيخ وتحتقن بالدم جراء ضحاياها تزحف إلى الشاطئ وترطُم نفسها حتى تتخلّص من الدّم المُحْتقن فتقتل نفسها؛ وقد احتقنت هذه الحيتان كثيراً وحان محانها وإنّ للباطل جولة وللحق جولة..

نعم يا صديقي ولهذا يحاولون السيطرة مالياً وإعلامياً

قلت له: يجوز مالياً وإعلامياً كما تقول ولكن ما علاقة السيطرة المالية والإعلامية بما يحدث في سورية ؟

مشى باتجاه النافذة، وأشعل سيجارة، وقال: ثمّة شخص واحد يستطيع أن يشرح لك بالتفصيل لأنه كان يعمل مسؤولاً مهماً في البنك الدولي..

سألته بلهفة: من هو؟!

قال بهدوء شديد وهو يطفئ سيجارته:

سأقول لك اسمه فقط حين تصل لمكان إقامته في اليونان..

وشهقت متعجباً: في اليونان!!

وسألته باستغراب: هل تريدني أن أسافر إلى اليونان من أجل أن يشرح لي فكرة؟؟!!

ضحك وقال: لا.. ليست مجرد فكرة .. ثم اقترب مني ووضع يده على كتفي: بل الحقيقة.. وأنت تبحث عن الحقيقة...

ووجدت نفسي من جديد أمام تحدٍّ صعب؛ وفضول لابدّ أن أفهمه تماماً....

قبرص ليلة ٦ تموز ٢٠١٣...

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً حين غادرت مطار جزيرة رودوس باتجاه مدينة فاليراكي السياحية الرائعة..

في اليوم الثاني غادرت فاليراكي باتجاه مدينة ليندوس التي وصلتها بعد ساعة تقريباً، وسحرني جمال البحر المستلقي في حضن الجبل، وكأنني أرى أمامي رأس البسيط في اللاذقية..

وصلتُ ساحة البلدة والشمس عامودية ملتهبة فوقفت تحت الشجرة العملاقة التي تتوسط ساحتها وأنا أنظر لقلعة ليندوس – أسبرطة التاريخية – العالية جداً..

دنوت من شرطي ينظم السياح، وسألته إن كان يوجد ثمّة تاكسي تقلني للقلعة؟؟

فابتسم وهو يمسح عرق جبينه، وأشار باتجاه مقهى قائلاً: هناك ستجد سائقي التاكسي.. وابتعد وهو يضحك من دون أن أجد سبباً لضحكته المجلجلة...

اقتربت من المقهى فوجدت مجموعة من الرجال بشوارب عريضة تذكرني بشوارب طوني حنا وأبو عنتر..

سألتهم عن حاجتي لتاكسي فوقف أحدهم وهو ينفض الغبار عن بنطاله وقال لي بلغة إنكليزية ركيكة: خمسة يورو مسيو...

حسناً.. قلت هذا وأنا ألتفتُ حولي أبحثُ عن السّيارة!! فوجدتُ مُحَدّثي دخل المكان الذي كنت أعتقد بأنّه مقهى؛ وخرج ومعه حماراً ويقول: تفضّل يا سيدي..

وضحكت وركبت الحمار وصعدنا باتجاه القلعة...

قلتُ له: شيء غريب ما أراه!! اليونان وطن السياحة، وقبلة السّواح من كلّ أنحاء العالم، وهذا ما نراه اليوم ورغم ذلك اليونان تشهد أزمة اقتصادية خانقة؛ لماذا؟!

هزّ الحمار وقال: فتّش عن تركيا فهي سبب كل ما يجري في اليونان.. قلت: وما علاقة تركيا بما يجري في اليونان؟؟

قال وهو يشدُ من عزيمة الحمار: هناك مَنْ ضَربَ الاقتصاد اليوناني وحرصَ على تشجيع الاقتصاد التركي فجأةً ليكون قدوة للربيع العربي...

وصلنا أمام مدخل القلعة، وسألني إن كنتُ أرغب أن ينتظرني في الاستراحة ليقلني بطريق العودة؟؟

فأومأت له بيدي: أوكي، وتقدّمت من المَدْخَل واشتريت بطاقة دخول بسته يورو؛ شكرت الآنسة ودخلت القلعه فلحقت بي وقالت: سأكونُ دليلتك السياحيّة لو سمحت لي..

وقبل أن أُجيب سارت بقربي وهي تشرح لي تاريخ هذه القلعة حتى وصلنا حافة القلعة، فبدا البحر وكأنّه يعانقُ السّماء على امتداد النّظر..

مسكتُ يدها؛ ونظرتُ في وجهها قائلاً: قولي لي من أنت؟ قالت وهي تضحك: ولو.. أنا دليلتك السياحية هل نسيت بهذه السرعة؟؟

ثمّ أردفت قائلةً: على فكرة أحملُ لك تحيّات البروفسور السويدي توماس..

وفجأة سمعتُ صوتاً يقول: هل تعلم لو أنّك أمعنت النّظر من هذا المكان المرتفع جداً سترى سورية؟..

التفت لأجد خلفي رجلاً تجاوز العقد السادس من عمره.. مدّ يده مُصافحاً ومُرحّباً ثم أردف قائلاً: أنا الخبير الاقتصادي فريدريك. س. فارتسَمَتْ ابتسامة فرح بأنني التقيت أخيراً بالرّجُل الذي سيقدم لي الحقيقة، حقيقة ما يحدث..

وسألته: أنت تعرف سبب وجودي هنا؟

قال: طبعاً؛ ولكن هل تسمح لي بدردشة قبل أن أُجيبك على كلّ ما تريد؟؟

قلت: طبعاً تفضل..

قال: تعال، سنذهب إلى الكنيسة القديمة..

كانت كنيسةٌ قديمةٌ تعود إلى القرون الميلاديّة الأولى؛ وتضم صوراً ورموزاً تدلّ على مامَرّ على هذه القلعة الرائعة..

سألني: قل لي لماذا تكتب دائماً عبارة: سورية مَهْدُ الإنسانية؟؟ قلتُ له: إذا كانت سورية مهداً لإحدى أقدم الحضارات على وجه الأرض فهي إذاً بداية الأشياء كلّها.

قال: حسناً ما معنى مهداً لأقدم الحضارات؟؟

قلت: قد لا يَخْفى عليك أنّ في جبل قاسيون يرتكز قبر هابيل الذي قتله أخوه قابيل..

قال وهو يتأمّل عناق السماء والبحر في لوحة رائعة: وماذا يعني ذلك؟

قلت: هذا يعني شيئاً واحداً فقط..

أنّه من سورية كانت بداية العرق البشري؛ وبداية تخطيط المُدن؛ وبداية تدجين الحيوانات؛ وبداية تطوير الأبجدية؛ وبداية المدُن الأولى في التاريخ، وإضافةً لذلك العديد من الحضارات والمدُن والمَمالك قال: أريدُ أنْ أعرفَ بعض تلك المدُن والمَمالك الّتي تتحدّث عنها..

قلت: مملكة ماري، وأوغاريت، وراميتا، والبارة، ودورا أوربوس، وسرجيلا، وكرك بيزة، وجرارة، وقاطورة، وعين دارة، وشمس، وباصوفان، والنبي هوري، وأرواد، وقطنا، وشهبا/ فيليبولس، وقنوات، وصلخد، وأفاميا، وحمو كار، وبعودة، والمناره، وتوتال، ودير سنبل، وإيمار، والدانا، وسرمدا وغيرها العشرات من المدن.. إنّ كثرة الحضارات التي قامت وتقاطَعَتْ فوقَ الأرض السورية والغنى الكبير للمواقع التاريخية التي تعود لكافة العصور والحضارات تجعل من سورية مدخلاً وبوابةً للتاريخ.

قال: وهذا يعني أنّ عدة حضارات قد مرّت على أرض سورية؟

قلت: تماماً.. لقد قامت على أرض سورية حضارات كثيرة وسكنها شعوب شتّى يُمكن تعدادها على الترتيب: السومريون، الأكاديون، الكلدان، الكنعانيون، الآراميون، الحيثيون، البابليون، الفرس، الإغريق، الرومان، النبطيون، البيزنطيون، العرب، وجزئيا الصليبيون والعثمانيون، والانتداب الفرنسي.

قال: أعرفُ هذا أيُّها السوري لأنّني أنا أيضاً سوري قبل أن أكون يونانياً

قلتُ مُستغرباً: أأنت سوري الأصل؟؟

قال: لاتستغرب يا صديقي.. نعم العالم كلّه من سورية، فقد قال يوماً / لياغر / أحد المفكرين القدماء: لاتظنّوني غريباً.. كُلّنا من وطن واحد.. كلنا من سورية.. وقال أيضاً مدير متحف اللوفر الفرنسي /..أندرية بارو/: على كلّ إنسان مُتمَدّن أنْ يقول: لي وطنان.. وطني الذي أعيشُ فيه وسورية.. وهذا تأكيداً على كلامك.

ثمّ سمعتُ صوتاً يقول: ألَمْ أقُلْ لك لاتمتحن بروفسور فريدريك في معرفته سورية فهي عشقه الأبديّ...

وهتفتُ بسعادة: رباه.. إنّي أعرف هذا الصوت، التفت ورأيتها؛ وصرختُ بأعلى صوتي: إليزابيت!!

أكادُ لا أُصدّق عيني..

ركضَتْ باتّجاهي وحضَنتني وهي تضحك وأنا أبكي فرحاً لأنني وجدتها بعد أن فقدتها منذ مشاركتها في قافلة الحرية..

اقترب مني البروفسور فريدريك وطلب أن ندخلَ سويّة لغرفة الاعتراف، ومن هناك فتح باباً ضيّقاً لندخل قاعةً كبيرةً جداً لأجد مجموعةً من الرّجال يجلسون حَوْلَ طاولةٍ مستطيلةٍ وطويلةٍ وفي عمليّة تَعارُف بيني وبينهم تحدّث

البروفسور فريدريك وطلب منّي أن أشرحَ للجميع حكايتي مع إليزابيت، ثمّ همسَ بأذني قائلاً:

– هذه الهيئة هي التي ستسمح بتزويدك بكُلّ الحقائق التي تبحث عنها، ولكن يهمّهم جداً أن يعرفوا حقيقةَ إليزابيت إن كانت موضع ثقة..

حسناً.. وفتحت باب غرفة الاعتراف وأدخلت إليزابيت قائلاً: اسمحوا لي أن أعرّفكم على فتاةٍ سويديّةٍ اسمها إليزابيث، تعرّفت عليها في بداية عام ٢٠٠٣ حين أنهت دراسة الثانوية العامة وقرّرت ترك المدرسة لأنّها تعبَتْ كما قالت لي، وجاءت إليّ تطلب عملاً في المطعم الذي كنتُ أمتلكه في ذلك الوقت..

أعطيتها عملاً بنصف دوامٍ يومياً، كانت سعيدةً بعملها رغم أنّها عملَتْ على تنظيف الأطباق والمَسح والمساعدة بكلّ شيء..

ذات يوم سألتها إن كان هذا هو كلّ طموحها؟

فاستغربت السؤال لأنّ والدها لم يسألها، وترك لها حرية الاختيار باعتبارها أصبحت بالغة وتجاوزت الثامنة عشرة من عمرها..

أجابت: لا.. لكن ما هو البديل؟

وأيّ فرعٍ في الجامعة يتطلب أربع أو خمس سنواتٍ من الدراسة، وبعدها البحث عن عمل بدون فائدة إذاً لما التّعب ووجع الرأس؟

قلت لها: لماذا لا تدرسين اللّغة العربية؟

نظَرتْ إليّ وكأنّني فاجأتها بشيء لم تكن تتوقّعه أبداً، ثمّ مطّت شفتيها باستغراب: العربية؟

وماذا سأفعل باللغة العربية وأنا سويديّة ومُقيمة في السويد؟

قلت: تعملين الكثير، تستطيعين أن تعملي في مجال الترجمة، أو معلّمة، في السلك الخارجي، مجال العمل سيكون كبيراً ومهماً، وأنت تجيدين اللّغة

العربية إلى جانب السويدية والإنكليزية، وأنهيت كلامي بالقول: وأيّ مساعدة تطلبينها أنا جاهز..

بعد أسبوعين جاءت إليّ تُخبرني بأنّها تريد ترك العمل فهي سجّلت في (جامعة أوبسالا) القريبة من استوكهولم، لدارسة الأدب العربي.

فرحتُ كثيراً وشعرَتْ هي بفرحتي؛ فحضَنتني شاكرةً ومودعةً، وتمنّيت لها التوفيق.

لقاء وتعارف...

بعد ثلاثة أشهرٍ تقريباً علمتُ بأنّ رجلاً سويدياً سأل عني، وترك بطاقةً تحمل اسمه ورقم تلفونه متمنيّاً أنْ أتصل به بخصوص إليزابيت..

اتّصَلتُ حينها وتعرّفتُ على الرّجُل وهو الصحفي هنريك وزوجته معلّمة المدرسة، وعلمت أن إليزابيث هي ابنتهما وأنهما مرا بالمطعم من أجل أن يشكُراني، وبعد أيامٍ التقينا، ومن يومها أصبحنا أصدقاء جداً.

٢٠٠٥ إليزابيث في العراق..

أنهَتْ إليزابيث عامها الأول، وجاءت إليّ وهي تضحك، وقالت إنّها ستمضي صيف هذا العام في العراق لتتعرف على الشعب العراقي عن قرب وهو تحت الاحتلال، وطلبت مني أن أزوّدها بما أعرف عن العراق، وقبل أن تنصرف طلبتُ منها أن تكون حذرةً جداً ؛ لأنّ الأوضاع صعبةٌ جداً ومخيفة.

مرةً ثانيةً حَضَنتني بقوة وهمست بأُذني: لا تخَفْ عليّ..

بعد شهرين تقريباً عادت من العراق ولم تتمَكّن من زيارتي، بل اكتفت بحديثٍ تلفونيّ طويل؛ أخبرتني من خلاله بكلّ ما جرى معها في العراق، الويلات والخوف والرّعب وكره الشعب العراقي للاحتلال الأمريكي، وتطلُّع هذا الشعب إلى الحرية والعيش بكرامة.

٢٠٠٦ إليزابيث في أفغانستان..

أنهت إليزابيث سنتها الثانية، وجاءت برفقة والديها، وأخبرتني بأنّها ستُغادر إلى أفغانستان، بعد ثلاثة أيام وحين بدَتْ علامات الاستغراب على وجهي، سارعت بقولها:

أعرف «انتبهي إلى نفسك و و» مثلما قُلت لي في المرة السابقة، وأنا سأقول لك شكراً وأحضنك وأقول مرةً ثانيةً : لا تخف عليّ، وغادرَتْ.

بعد شهر تقريباً وصلني كارت لصورةٍ التقطتها لأولاد أفغان فُقراء يجلسون على الأرض، وإليزابيث تعلّمهم الأحرف، فرحت كثيراً واتصلت بوالدها، فردّ ضاحكاً بأنّه استلم أيضاً صورةً مُشابهةً ولكنّها لنسوة أفغان.

٢٠٠٧ إليزابيث في غزة

مرةً أخرى عادت إليزابيث إلى جامعتها لتبدأ سنتها الثالثة، وكانت تتصل بي باستمرار وتسألني عن الأخبار أو عن معلومةٍ ما تتعلّق بأصل كلمةٍ أو بلدٍ أو نظام حكمٍ .

مرّت الأيام والأسابيع والشهور؛ وبدأتُ أشعر كأنّها ابنتي الّتي لم يرزقني الله مثلها؛ فكانت هي.

وحين أنهَتْ دراستها للعام الثالث، جاءت لزيارة عائلتها، فذهبْتُ إليهم برفقة زوجتي..

قلتُ لها: عراق وأفغانستان والآن؛ إلى أين؟؟

اتّجَهت نحو التلفاز وقالت: انظرْ إلى مدينة غزّة إنّها تحت النار والحصار؛ وسأذهب إلى هناك..

نظرتُ إلى والدها فأشار بيديه وكأنه يقول: «ليس بيدي شيء أعمله» ودّعناها بحرارة.. وقبل أن تقولَ شيئاً قلتُ لها: ستعرفين حين تعودين، مشوارك إلى غزّة مختلفٌ تماماً عن مشاويرك السابقة يا ابنتي، احرصي على عينيك وقلبك.

نظرَتْ إليّ بدهشة وكأنّها تستفسر عن شيءٍ ما.

وذهبت إليزابيث إلى غزّة عام ٢٠٠٧

وعادت بعد خمسة أسابيع، اتصلت بي تبكي، قالت بأنّها مُنهارةٌ تماماً، وأنّها عرفَتْ لماذا أوصيتها بعينيها وقلبها؛ لأنّهما بكيا كثيراً ؛ ومازالا يبكيان؛ وأنّها محتاجةٌ إلى طبيبٍ نفسيّ لكثرة ما شاهدت من أهوالٍ فظيعة لأهل غزّة تحت الحصار؛ وقالت: أعتقدُ أنّ العام القادم سيكون أسوأ بكثير.

٢٠٠٨ إليزابيث في دمشق

أكملتْ إليزابيت عامها الرابع بتوفيق، وجاءت إليّ كالعادة تطلب شيئاً رائعاً، قالت:

– أنت الذي شجّعتني على دراسة اللغة العربية؛ وقلت لي بأنّك جاهزٌ لأيّ شيءٍ أطلبه؛ أتذكُر؟

قلت: نعم أذكُر ذلك، ماذا تريدين؟؟

قالت: لتَكْتمل لُغَتي بشكلٍ عمليّ وأفضل وأقوى؛ نصحني البعض بالذّهاب إلى جامعة دمشق لمدة ستة أسابيع؛ وهذا حُلمي لسببين:

الأول: أنّ الشام بلدك أنت، يا منْ أخذْتَ بيدي منذ البداية؛ وفتحْتَ عينيّ على لُغةٍ رومانسيةٍ جميلة؛ وعالمٍ عربيّ طيّبٍ وكريم ومظلوم كثيراً...

والسبب الثاني: أنّ دمشق هي أقدمُ مدينة مأهولة في التاريخ؛ ومازالت حتى اليوم، حلمي أن أراها فهل ستساعدني؟؟

قلتُ لها: اطمئني سيكون كلّ شيءٍ جاهزاً خلال أيام.

اتّصلتُ بالصديق والمُمثّل عبّاس الحاوي والصديقة الدكتورة صافية الحسن، فرحّبوا بالفكرة وأبدوا استعدادهم لاستقبالها..

سافرت إليزابيث إلى دمشق، والتقت بأخي الروحي عبّاس وبصديقتي الدكتورة صافية اللّذين أبدعا وأكرما ضيافتها، وكنتُ كلّما اتّصل بعبّاس تلفونياً ترد إليزابيث قائلةً:

أنا في جبل قاسيون، أو أنا في مقهى أُدخّن النّرجيلة، وتُخبرني أنّها أكلَتْ بوظة عند بكداش في سوق الحميدية، وزارتْ (باب توما) و(باب الجابية) و(باب شرقي) و(صيدنايا ومعلولا).

في ٢٣ كانون الأول ٢٠٠٨

عادتْ إليزابيث من دمشق مباشرةً إلى بيتي برفقة أهلها، محملةً «بقلاوة وبرازق ومعمول» وبدأتْ تتكلّم باللغة العربية:

هذه البرازق من الدكتورة صافية، وهذه البقلاوة من أعز صديق عبّاس، وهذا المعمول منّي أنا، كانت ليلةً لا تُنْسى وهي تروي ذكرياتها في دمشق بلغةٍ عربيةٍ جميلة.

إليزابيث في السفارة..

بعد أقل من أسبوع اتصلتْ بي باكيةً وهي تقول:

انظرْ إلى التلفزيون، إنّها الحرب على غزّة، اجتياحٌ لجيشٍ كاملٍ على مدينةٍ ليس لديها ما تأكل وتشرب، إنّه عارٌ على كلّ القيَم والأخلاق، وانهارتْ تبكي..

بعد شهرين وقفتْ أمامي في المطعم تضحك، سألتها: ما بك؟؟

قالت: أنا سعيدةٌ جداً، وارتمَتْ في حضني تضحك..

فعُدْتُ أسألها من جديد؟؟

فأجابت: تمّ تعييني سكرتيرة مساعدة للسفير السويدي في مصر، وهذا كلّه بفضلك، وراحت تضحك وأنا أضحك، كاد كلانا يبكي فرحاً.

ذهبتْ إلى مصر؛ وبقيت عدة أشهرٍ، ولم تستمر لأنّها في أوقات فراغها كانت تذهب إلى مَعْبر رفَح وتلتقط الصّور ولم تقوَ على الانتظار والعمل بشكلٍ روتينيّ في مكتبها..

الناشطة إليزابيث عادت إلى السويد..

وأقامت معرضاً لصورها في معْبَر رفَح وغزّة، ونَشطتْ مع والدها وأمّها في حشد مسيراتٍ ضخمةٍ تُوّجتْ بالأكبر في مدينة بورس، للتنديد بجرائم إسرائيل الوحشيّة، وكم كان منظرهم رائعاً وهم يرتدون الشّماخ الفلسطيني؛ ويتقدّمون المسيرات؛ وفي المساء كانوا يجْمَعون الأخبار؛ وينسّقون المواقف، ومن أهم ما فعلته إليزابيت وعائلتها:

- **أولاً:** كشف عملية تزوير البرتقال الإسرائيلي، من خلال وضعَه في صناديق كُتب عليها: (أسبانيا) فأجبرت الحكومة على إتلاف البرتقال الإسرائيلي، وأوقفت استيراده..
- **ثانياً:** تمّ جمع آلاف التواقيع لدعم أهل غزّة بقرارٍ بالتّبرع بأُجرة يومٍ كاملٍ من جميع وسائل النّقل الداخلي لصالح أهل غزّة..
- **ثالثاً:** أقام والدها معرضاً للصور يقارن بين الإسرائيلي اليوم والألماني النازي، وبين الفلسطيني اليوم واليهودي قبل أيام هتلر النازي؛ مُتسائلاً: كيف يمكن أن تقنعونَنا بأنّكم تعرّضتُم للإبادة والظُلم، وأنتم تمارسون اليوم أبشع منه؟؟

المُفاجأة..

ذات مساء قلتُ لوالد ليزا: أشكُركُم كثيراً لأنّ ما فعلتموه أكثر بكثيرٍ ممّا كنتُ أتوقّع، وأكثر بكثيرٍ من دولٍ عربيةٍ وقفَتْ للأسف الشديد تتفرّج..

نظر إلى زوجته، ثمّ نظر إليّ وقال:

أريدُ أن أُصارحك: نحنُ الّذين يجب أن نشكركَ، لأنّه لولاك لبقيت ابنتي بدون أيّ شهادة؛ أو موقفٍ إيجابي في حياتها، ولما أصبحت ناشطةً كبيرةً في مجال حقوق الإنسان، ولبقيت طيلة حياتها تجلي وتمسح في المطاعم والحانات، ولبقينا مثل غيرنا لا نعرفُ حقيقةَ ما يجري في العالم عامةً وفي الشرق الأوسط خاصةً، واليوم صار عندنا قضية، وهي نشر حقيقة ما يجري وكلّ هذا أيضاً بفضلك..

أريدُ أن أشكرك كثيراً نيابةً عن كلّ عائلتي، فأنت في نظري خير سفيرٍ لبلدك الكريم.

خرجتُ وأنا أحمدُ الله أنني والمُمثّل عبّاس الحاوي، والدكتورة صافيه، وكلّ الشُّرفاء الطّيبين، استطعنا أن نُشكّل لوبي إيجابي يُفْهمنا كمغتربين أولاً، ويُفْهم قضيّتنا، ويتم التعاطُف معنا، لعلّ وعسى يكبر هذا اللوبي شيئاً فشيئا، ويصبح قوة فاعلة ومؤثّرة..

وبعد مشاركتها اللّوجستيه مع الفريق السويدي المشارك في قافلة الحرية انقطعت أخبار إليزابيت وتضاربت الآراء؛ فلم نَجدْ لها اسماً بين الّذين اعتقلتهُمْ إسرائيل بعد الهجوم الإسرائيلي على سفينة مرمرة المُشاركة في قافلة الحرية المتجهة إلى غزّة لكسر الحصار في أواخر شهر أيار ٢٠١٠...

ومرّت السنوات ونحنُ نبحث عنها في كلّ مكان ولكن دون جدوى، وكنت أرفض الاعتراف بحقيقة أنّ اختفاءها يعني موتها..

وها أنا اليوم أراها.. أرى تلميذتي التي أفتخر بها..

هذه هي إليزابيت التي أُحبُّ أن أُناديها ليزا.. ومرّة ثانية حضنتني ولكن هذه المرة كانت دموع الفرح وسط تصفيق الحاضرين...

وقف البروفسور فريدريك، وقال:

– كل الّذي قلته أنت الآن عن إليزابيت مكتوبٌ هنا في ملفها وبخط يدها..

ولن أقول لك الآن كيف تمّت عمليّة تهريب وإخفاء إليزابيت بعد القرصنة الإسرائيلية، بل سنترك هذه المهمّة لها تُخبرك بها فيما بعد، ولكن أستطيع أن أُخبرك بأنّها من يومها وهي معنا، واليوم نودّ أن نشكُرك ونشكُر حضورك بيننا..

وقاطعته: ولكن لم تقل لي من أنتم..

– هاربون!!!

قلت ذلك مستغرباً!! فقال مؤكداً : نعم هاربون..

واشتقّينا هذا الاسم من قصيدة الهاربون لنازك الملائكة، ودعني أُطلعك على هذه اللوحة المُخمليّة التي دوّنت عليها القصيدة :

نازك الملائكة : الهاربون..

إلام نجوبُ سحيقَ البلاد؟
يعيثُ السراب بنا
تناولنا وهدة لوهاد
ويخدعنا المنحنى

* * *

وفيم أتينا؟
يسائلنا البحر: ماذا نريد؟

وتلحقنا عربات الرياح وتبقى تعيد
تعيد السؤال
ولا ردّ إلا خطوط الملال
على صمت أوجهنا في الليالي الطوال
نفرّ وتدركنا من جديد
* * *
ويسألنا الأفق أين نسافر؟ أين نسير؟
ومن أيّ شيء هربنا؟ وفيم؟ لأيّ مصير؟
وفي صمتنا
قلوب تدقّ، ووقع المنى
على يأسنا فرح لا يطاق فهيّا بنا
لنبحث عن جرح حزن صغير
* * *
وفي سيرنا نسمع الليل يسخر من سرّنا
يلاحقنا بالظلام ويغري الرياح بنا
يقول الطريق:
لماذا نجوب الوجود السحيق؟؟
يلاحقنا أمسنا ورؤانا ووجه صديق
وحتام نهرب من ظلّنا؟
* * *
وفي سيرنا في الدياجير نبصر هزء القمر
ويغضبنا في سناه البرود، وبعض الشجر

يسدّ السبيل

علينا، ويسخر منّا الأصيل

وينبئنا أنّنا الباحثون عن المستحيل

وأنّا، برغم منانا، بشر

* * *

ونسمع من جنبات المسالك ذات مساء

صدى هامساً في الدّجى أنّنا.. أنّنا جُبناء

نخاف الأصيل

ونرحل لا رغبة في الرحيل

ولكن نهرب من ذاتنا، من صراع طويل

ومن أنّنا لم نزل غرباء

* * *

وها نحن، حيث بدأنا، نجوب الظلام الفظيع

شتاء يموت، وأسئلة لم يجبها ربيع

حيارى العيون

يسائلنا غدنا من نكون؟

ويتركنا أمسنا المنطوي في ضباب القرون

فيا ليل، يا بحر، أين نضيع ؟

....

قلتُ: رائع فعلاً، وأنا من عشاق نازك، ولكن:

– لماذا تهربون؟؟

– لأنّنا نعرف أكثر ممّا يجب..

– لم أفهم؟؟.. هل بالإمكان أن تشرح لي أكثر؟؟

ابتسم بمودّة وقال: طبعاً ولكن.. . هل تريد فعلاً أن تعرف؟!

– طبعاً.. وهذا سبب وجودي ..

– ولكنّ المعرفة تحتاج إلى مغامرة؛ فهل تستطيع المغامرة؟!

– أعتقدُ بأنّك أصبحت تعرف الجواب..

– الاعتقاد شيء؛ والإيمان شيء آخر.. أن تعتقد بشيء فهذا لا يُكلّفك أنْ تُغامر بأيّ شيء، ولكن أنْ تؤمن بشيء فذلك يُصبح مبدأ وغاية نبيلة يجعلك تُغامر بكلّ شيء لأجل هذه الغاية الإنسانية النبيلة ..

وحسمتُ أمري بكلمة: أريدُ أن أفهمَ الحقيقة..

قال: كلّ إنسان يريدُ أن يعرف الحقيقة، ولكن ليس كلّ إنسان لديه القدرة أن يدفع ثمنها.

– وما هو الثمن المطلوب مني؟!

– الحفاظ على السّر؛ فإن حافظت على السّر فلن تدفع أيّ ثمن لقاء ذلك

ولكن إن لم تحافظ على احترام السرّية قد تكون حياتك هي الثمن...

وبثقة وتحدّ قلت: موافق على المُحافظة على السّر، وأُقسم على ذلك فقط بشرط أن لا أكون طرفاً أو أداةً ضدّ الإنسان والإنسانية، ولا ضدّ وطني، ولا أن يُفرضَ عليّ شيئاً يُخالف قناعتي وضميري.

اقترب البروفسور مني وبيده كتاباً وضعه على الطاولة وقال: ضعْ يدك على كتاب مجموعتنا / من أجل الإنسان /. وأقسم أن تَحْفظَ السّر؛ وأن تكون أفعالك وأفكارك وحياتك من أجل الإنسان..

وضعتُ يدي وأقسمت العهد الجديد، ثمّ أخذ بيدي واقتربنا من الجالسين حول الطاولة المستطيلة وقال:

- البروفسور ج . م خبير اقتصادي كان لسنوات طويلة مستشاراً إقتصادياً للبنك الدولي ولديه وثائق ومستندات هامة جداً ..

ثم اقتربنا من الثاني وقال:

- وهذا وزير مالية سابق لإحدى الدول وكان على صلة مباشرة بكل العقود والرشاوي وغسيل الأموال في بلده..

والثالث هذا رجل أعمال ملياردير كان يُطلب منه تمويل صفقات أسلحة غير شرعية لمنظمات على لائحة الإرهاب الدولي.

والرابع هو خبير قانوني عمل لسنوات في الأمم المتحدة وكانت مهمته الوحيدة إيجاد الثغرات لتمرير عراقيل في تفاصيل العقود والاتفاقيات؛ وحتماً سمعت بعبارة يُردّدها السياسيين كثيراً:

- الشيطان يكمُن بالتفاصيل - كان هو المقصود لأنّه هو من يضع تلك التفاصيل.

والخامس هو عرّاب صفقات الأسلحة لمنظمات ومؤسسات وأفراد

والسادسة كانت مسؤولة علاقات عامة في البنك الدولي ومشرفة على كلّ العلاقات الإباحية واللاأخلاقية لتوريط رجال لهم قوة ونفوذ..

والسابع هو جنرال متقاعد مهمته وضع خطط عسكرية لصالح الجهات والمنظمات التي لديها طموحات سياسية أوعسكرية أو دينية..

والثامن هو رجل دين وسيط يُنفّذ ما يُطلب منه بفتوى يمرّرها لمن يهمه الأمر..

والتاسع هو رجُل جمارك كانت مهمته تمرير كل ما يُطلب منه..

والعاشر هو طيار كانت مهمته إيصال رسائل خاصة جداً...

وصديقتك إليزابيت وأنت تعرف قصتها تماماً..

كلّ الذين تراهُم الآن في هذه القاعة وغيرهم؛ هم هاربون من بلادهم التي لا تعرف بأنّهم على قيد الحياة بل هم أموات..

تماماً مثل اليزابيت .

قلت: لماذا؟؟

قال: ياصديقي، الّذين تعرفت عليهم الآن ولظرف ما قرّروا التّمرُد على واقع حياتهم ورفضوا أسلوب حياتهم التي دمّرت بلاداً وشعوباً

- ولماذا يهربون؟؟

لماذا لا يستقيلون؟؟

- في مثل هذه الأعمال ليس هناك استقالة إلّا للقبر

- لماذا ؟؟

- لأنّهم يعرفون أكثر مما يجب

- وماذا يعرفون؟؟

نهض ومشى باتجاه صورة السّيد المسيح مصلوباً وقال:

- يعرفون الحقيقة التي تبحث عنها يا صديقي..

يعرفون الحقيقة التي جئت لليونان لأجلها..

يعرفون كلّ شيء.. فهل مازلت تريد أن تعرف الحقيقة؟؟

نظرتُ إلى إليزابيت فوجدتها تأكل أظافر أصابعها قلقة"؛ وكأنها فهمت نظرتي فأسرعت إليّ وطلبت أن تتحدث معي على انفراد.

وخرجنا من الغرفة السرّية إلى بهو الكنيسة..

وسألتني: ما بك!؟

قلت: أتسألينني ما بي حقاً!؟

فجأة أجدك بعد غياب طويل، وأجد نفسي في دوّامة كلّما حاولت أن أفهم شيئاً أجد نفسي لا أفهم شيئاً، وأنّ الأمور تزداد غموضاً..

وكلّما شعرت بأنّ الحقيقة أصبحت بقبضة يدي أجدها كالرّمل تتسرّب من بين أصابعي..

قالت: قل لي ما الذي يُقلقك!؟

قلت باستغراب: ليزا..! كل الذي أنا فيه وتسألين ما الذي يُقلقني!؟

اسمعي؛ أنا عشقت الصحافة؛ السلطة الرابعة؛ لأنّني كنتُ معجباً بصحفيّ كبير اسمه سعيد فريحة، وكنت معجباً بعبارته الخالدة: علّمتني الحقيقة أن أكرهها فما استطعت..

ولهذا اخترت الصحافة وركوب المخاطر..

ولم أكتب يوماً فانتازيا أو تخيُّلات وأحلام بل كنت أكتب كلّ ماأراه بعيني أو ألمسه بيدي وأنت تعرفين هذا، ولهذا جئت هنا لأفهم شيئاً واحداً... الحقيقة؛ حقيقة ما يحدث في سورية..

قاطعتني: وحقيقة ماحدث في تونس وليبيا ومصر واليمن أليس كذلك؟؟

صرختُ غاضباً: لا يهمني.. لايهمني... ثمّ اقتربت منها هامساً:

- اسمعيني جيداً.. أنا لم يعُدْ يهمّني الربيع العربي بشيء؛ ولا يهمّني ما يجري بكلّ هذا العالم..

كلّ ما يهمّني اليوم سورية بلدي فقط..

يهمني أن أعرف حقيقة ما يحدث في سورية... أرجو أن تفهمي ذلك جيداً يا ليزا وارتميت على مقعد الكنيسة متعباً حتى الموت..

اقتربت مني، احتوت رأسي بين ذراعيها، قبّلتْ جبيني في محاولة لتهدئتي ولتُخفّف عني موضحةً بأنّ كل ما أريد معرفته سأعرفه قريباً..

سألتها: لماذا يُلّح عليّ البروفسور بالسؤال إن كنت فعلاً أريد أن أعرف؟

قالت: البروفسور كان متعاوناً معك لأنّه أحبّك، وأحبّ الإنسانية فيك، ووثق بك نتيجة كلام البرفسور توماس وكلامي أنا؛ ولهذا فتح لك باب الهاربون وقدمهم إليك؛ وهو ينتظر أن تثق به ليقدم لك كلّ ما تريده..

- وكيف أثق به وأنا لا أعرفه؟

وسألتني: هل تثق بالبرفسور توماس؟؟

قلت: طبعاً

- هل تثق بي أنا تلميذتك ليزا ؟؟

- طبعاً

قالت: إذاً يجب أن تثق به، وعلى مسؤوليتي أنا..

وبينما كنتُ أتأمّل بريق الرّجاء في عينيها في محاولة لأستمدّ قوة الثّقة والأمل الذي يجعلني أتخذ القرار الصعب..

بعكس ما كنتُ أفعله فيما مضى حين كنت أشعر بأن أوكسجين إنسانيتي بدأ ينفذ من روحي وأنّي غير قادر على اتخاذ أي قرار؛ أُسرع إلى دمشق الياسمين لأذوب فيها حباً وعشقاً وكرامة؛ ففيها أحافظ على إنسانيتي التي أحبها، وأفتخر بها، ولا أريد أنْ أخسرها في غربتي.

رنّ تلفوني فرأيت نمرة غريبة لا أعرفها، فاستأذنت ليزا بالرّد، فأشارت بيدها أن لا أذكر مكان وجودي، وكان صوت أيمن يعقوب ابن بلدي محردة؛ الذي رحب بي في اليونان ودعاني لزيارته فاعتذرت بلباقة بأنّ وقتي لن يسمح بذلك؛ فأكد لي أن الدعوة مفتوحة وقائمة في أيّ وقت مناسب.. وراح يتحدّث عن محرده وذكريات الطفولة فجعل ابتسامة الفرح تتراقص على وجهي وتذكرت ما قلته ذات يوم لطالبة:

في محرده عاشرت الصبر وعاشرني كرهته ولم يكرهني، وعندما كبرت، وأدركت أنّ عقل الإنسان في الصبر، فهمت لعبة القدر فشكرته ولم يشكرني؛ بل أفهمني أن أشكر محرده مدينتي لأنها أول من علمني أبجدية الصبر.

أنهيت المكالمة وشعرت بأنّ هذا ما كنت أنتظره فعلاً، واقتربت من ليزا أبتسمُ قائلاً:

الآن أستطيع اتّخاذ القرار الصعب...

قالت: كنتُ متأكدة من ذلك..

ابتسمت ممازحاً: وما أدراك!؟

قالت: لأنني أعرفك كما أعرف نفسي؛ وأحياناً أكثر..

قلت: لا تُبالغي..

لا أحد يفهم الآخر أكثر من نفسه، كُل القصة أنك مقتنعة ومعجبة بما أفعله.

قالت: بل مؤمنة بذلك..

ضحكتُ بأعلى صوتي ودنوت منها هامساً في أذنها: لا تقولي لي إنك مؤمنة لأنني أعرفُ بأنك لست مؤمنة..

قالت: يجوز إني لستُ مؤمنة بالأنبياء، ولكنّي مؤمنة بالله والإنسان وهذا يكفي كي أعيش باحترام وأحترم الإنسان الآخر لأنّ الإنسانية تجمعنا.. وهذا هو المهم.

قلت : صدقت.. الحياة رحلة طويلة كُتب علينا أنْ نقطعها سواء شئنا أم أبينا، وعلينا أن نحاول أن نجعل من تلك الرحلة متعة وفائدة وذكرى جميلة بالحب والكلمة والصورة..

قالت: لماذا تُراهن دائماً على الحب والكلمة والصورة؟!

قلت: الحب لأنّه الزورق العائم فوق أمواج ثائرة وعواصف هائجة؛ ليوصلنا إلى جُزُر الخيال السحريّة التي يحلم بها كلّ كائن حي، حيث يجمع أزهار السوسن والياسمين لتُعطّر آفاقه بأغلى الطيوب ليكتب أجمل الأماني بكلمة نابعة من أعمق الأعماق التي تنبض من شريان القلب، والمُطرّزة بأرق الأحاسيس والمشاعر، لتُشكّل صورة تحمل في تلاوينها جمال المشهد وروعة التعبير..

قالت بفرح: أستاذ... والله أنت أستاذ.. وحضنتني بقوة.

قلت لها: بقي شيء واحد ينقصني..

- الحقيقة التي جئتُ من أجلها، وحين أعرفها سأصبح أستاذاً كما تقولين..

قالت: ستذهب الآن إلى فندق لويس كولوسوس بيتش في كاليثيا لتستمع بالغروب وتشاهد الشمس وهي تُعانق البحر في أجمل لوحة وتأخذ القليل من الراحة، ثمّ نلتقي مساءً في مطعم روميو الشهير برودوس القديمة.

رودوس القديمة ١١ تموز ٢٠١٣

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً حين وصلت رودس القديمة واتجهت مباشرة إلى مطعم روميو

فلم أجد ليزا بانتظاري..

اقترب مني شخصٌ بدين وأمسك بيدي يدعوني للدخول وهو يقول: تفضّل سيدي لدينا شراب الأوزو الأبيض

- يوناني لا مثيل له، وطبق من المشاوي اللذيذة.

وحاولت أن أعتذر منه لكنّه أكمل كلامه قائلاً:

والحمص وبابا غنوج السوري بانتظارك يا سيدي تفضّل..

نظرتُ إليه فوجدته يبتسم ويهزّ برأسه، ففهمت الرسالة، وابتسمت أنا الآخر..

ودخلت.. صعد أمامي إلى السّطح حيثُ كانت عريشة العنب كخيمة تُغَطّي أربع طاولات جمعها على بعضها لتُشكّل طاولة واحدة...

جلسنا...

وبينما كنتُ أستَمْتع برؤية رودوس القديمة من مكان مرتفع قال لي بلغة عربية: سنشرب أولاً كأساً من الأوزو - عرق يوناني

- ثم سنتناول العشاء حين يحضر الهاربون.

وتحدث كثيراً، وقال أنه يُجيدُ عدّة لغات ومن بينها اللغة العربية، وأنّه سافر إلى بلاد عربية كثيرة ولكن لدمشق وبيروت مذاق العاشق المزاجي لأنّهما متشابهتان بكل شيء..

ولهذا مازال يحتفظ بأجمل ذكرياته، وحدّثني عن حُبّه لسوق الحميدية وبوظة بكداش، والمرأة الجميلة التي كان يعزف لها كل مساء في فندق الشام بمطعم الدوار في الطابق الخامس عشر..

وصلت إليزابيت وفريدريك وأربعة رجال وامرأة، وتناولنا العشاء وشربنا الأوزو والنبيذ الأحمر؛ واستمتعنا بعزف على آلة البزُقْ، وتكسير الصحون، والرّقص اليوناني، حتى انتصف الليل فخرَجْنا من الباب الخلفي باتجاه الميناء حيث استقلينا يَخْت بحري أبيض كُتب عليه رودوس

- مارماريس..

فنظرت إلى ليزا بعبارة صامتة مستغرباً :

إلى تركيا؟؟!

فأشارت لي أنْ ألتزمَ الصمت...

كانت أنوار جزيرة رودوس تصغر شيئاً فشيئاً كلّما توغّل المركب في عُمْق البحر، ثم ما لبثت أن اختفت تماماً؛ ولم أعُدْ أرى إلّا البحر والسماء؛ وسلّمت أمري لله..

اقترب مني فريدريك وقال بلغة عربية ركيكة:

لا تقهر حالك...

فصحّحَتْ له ليزا: هو يقصد لا تقلق..

قلت لها: لا يهُم..

حتّى الآن قَهرَتني أشياء كثيرة؛ وقهرتُ بعضَ أشياء كان لابدّ أنْ أقهرها، ولكن لا أعرفُ إذا ما كنتُ قد قهرْتُ ما يجب أنْ أقهرَه؛ أو أنّي قهرت ما يجب أن لا أقهره فعلاً ..

ولا يهمني ذلك كثيراً؛ فما يهمني الآن هو أن لا أقلق ولا أيأس، وأن أكون متأكداً من شيءٍ واحد فقط:

هو أن أعرف الحقيقة حتى نعرف كيف نعيش الحياة بحب وأمان وبشكل أفضل...

فهمست لي: وبحُب.. أليس كذلك؟؟

قلت: طبعاً.. وبحب أيضاً..

ولكن لو قلت لي إلى أين نحن ذاهبون سأكون في أمان أكثر!!؟

قالت: مادُمْتُ مَعك ستكون بأمان يا أُستاذي العزيز.. اصْبُر واطمئن..

لا أدري لماذا أشعرُ بالسعادة كلّما قيل لي: اصْبُر..؟؟

أشعر وكأنّهم لا يعرفون إنّه اسمي الّذي أدمنته دائماً..

نادتني ليزا ودخلنا إلى داخل اليَخْت الكبير فوجدت فريدريك يقف بجانب شاشة كبيرة وبيده جهاز صغير يشبه الريموت كونترول..

طلب مني الجلوس وأشعل الجهاز فرأيت صورةً لعائلةٍ سبَقَ أنْ رأيتها وسألني:

- هل رأيت هذه العائلة من قبل؟؟

قلت: هذه العائلة..

لا لم يسبق لي الشّرف والتّعرُف عليها عن كثب، ولكن إن كنت تقصد الصورة.. نعم أعتقد بأنّي رأيتها من قبل.

فابتسم بخُبث وقال: هذا ما قصدته تماماً..

ولكن على ما يبدو لم أُجدْ طرحَ السّؤال باللغة العربية بشكل صحيح...

ثم أكمل حديثه مشيراً للصورة:

نعم إنّها صورة قديمة لأسرة روتشيلد؛ هذه العائلة هي التي تحكم العالم فعلياً من خلال البنك الدولي وسيطرته على بنوك العالم قاطبة..

فهذه العائلة هي التي تجيء بالزُّعماء والرؤساء وتعمل منهم أبطالاً، وهي التي تُنهي حياتهم أبطالاً أو خونة حسب ما تراه مناسباً وما يخدم مصالحها، وهي التي تموّل الدول وتهدم الدول وتبني الدول وتقسّم الدول..

باختصار شديد هي التي تحكم العالم...

سألته: وهل لها علاقة بما يحدث في سورية ؟؟

أشار بيده إلى صورة خريطة العالم وقال :

ليس سورية فحسب بل العالم العربي كلّه، وأمريكا، وأوربا وأستراليا وروسيا وآسيا وتبقى الصين عصيّة بعض الشيء.

وعدتُ أسأله:

أريد أن أفهم؟؟ كيف يُسْمح لهذه العائلة أن تتحكّم بالبنك الدولي وبنوك العالم!!

وكيف يُسْمح لها ببسط نفوذها حتى على أقوى الدول؟؟

قال: لا يوجد دول قوية، هناك دول تصبح قوية لأنّ البنك الدولي يريد لها أن تصبح قوية، وتبقى قوتها تحت نفوذه ويبقى رئيسها يحتاج رضى البنك لأنه لمعرفته بأنّه أصبح رئيساً برضى البنك الدولي أو برضى من يسيطر على البنك الدولي، ويعرف بأن سقوطه أيضاً بيد البنك الدولي..

لذلك البنك الدولي يرسم دائماً سياسات طويلة الأمد من أجل تعزيز قدرته وبسطت سيطرته على العالم أجمع...

اقتربت من الشاشة الكبيرة وأشرْتُ بيدي لحدود بلدي سورية وقلت: سمعت مثل هذه القصص وكتبت بمساعدة البرفسور توماس عن الماسونية والصهيونية وسيطرتهم على المال والإعلام، ولا أريد أمثلة عن دول أخرى..

أريد كيف ولماذا سورية؟؟

قال: سورية مثلها مثل بقية الدول..

هناك مصالح ومشاريع لابدّ أن تُنفّذ، وهناك سياسة هذا البلد تعرقل تنفيذ هذه المشاريع، وكان هناك محاولات لضم سورية لعدة اتفاقيات تجارية وضم البنك السوري إلى البنك الدولي حتى لا يبقى مغردا وحده بعيداً عن نفوذ البنك الدولي..

وابتعاده عن خط البنك الدولي بالاعتماد على الاكتفاء الذاتي وتوجيه بوصلة التجارة والمشاريع باتجاه آسيا والصين، وعلى فكرة الصين هي الدولة

الوحيدة بالعالم التي تقض مضجع البنك الدولي ولهذا يتم تضييق الخناق حول آسيا وروسيا.

وللمرة الثالثة أُقاطعه:

وكيف يستطيع البنك الدولي تحريك أحجار الشطرنج القاتلة؟؟

البنك الدولي يضُم أموال العالم بما في ذلك أموال الخليج العربي، ويستخدمها في إقراض الدول ومنح مساعدات مشروطة كنوع من التّحكم بسياسة البلد، ولكن هذا التّحكُم كان لا يُرْضي البنك دائماً، فلجأ إلى المُتناقضين الحرية والدين: الحرية لتكون حلم الشعوب والدين لإرضاء الله..

وهنا تَدخّل الخبير الاقتصادي ج . م

والذي عمل لسنوات طويلة مستشاراً اقتصادياً للبنك الدولي، وقال:

العملية معقّدة نوعاً ما، ولكن بوجود المال يسْهُل كل شيء، كنّا نستلم ملفات هائلة لدراسة وضع دولة ما.

قاطعته بحدّة: لا أريدك أن تحدّثني عن دولة ما، حدثني عن سورية فقط !!

قال بهدوء: دائماً يكون المخطط واحد، ولكن التنفيذ يختلف مابين دولة وأخرى بحيث يكون هناك خطة أ. وفي حال فشلها؛ أو عدم ملاءمتها لدولة أخرى هناك دائماً خطة ب .

أمّا الهدف واحد..

سألته: لماذا سورية؟؟

أجاب: لماذا سورية فهذا لم يكن يعنيني إن كانت سورية أو تونس..

فعملي كان مُحدّداً بدراسة الحالة وتقديم الاقتراح الصّح أو أفضل الاقتراحات المناسبة؛ أما لماذا؟.. هذا شأن خبراء قوة التجارة وقوة السلاح. قلت موجّهاً كلامي مباشرة لشخصه: وأنت؟؟

قال: أنا كنت مجرد موظف أُنفّذ الأوامر بسريّة مُطْلقة..

قلت: وبصفتك خبير اقتصادي ما هي الخطط التي كنتم تنصحون بها؟

قال بحدّة: أعود وأؤكّد لك سيدي.. أنا لم أكن أضع الخطط؛ بل كنت أنصح بتفضيل خطة ما على خطة أخرى، وواحد من الذين يشرفون على صرف التمويل اللازم لتنفيذ الخطة.

سألته: وما هي الخطة التي تمت الموافقة عليها بشأن سورية؟؟

قال: هي نفس الخطة التي تمّ الموافقة عليها بشأن مصر واليمن وتونس وليبيا والعراق وغيرها.

وهنا تدخل الجنرال المتقاعد الذي كانت مهمته وضع خطط عسكرية لصالح الجهات والمنظمات التي لديها طموحات سياسية أو عسكرية أو دينية وقال:

– كان يتم تكليفنا بإيجاد الشخصيات المغبونة سياسياً، أو التي طُردت من السلطة وتشعر بالإجحاف، وبعض القبائل الناقمة على السلطة، وبعض رجال الدين الذين يشعرون بأنّ حقوقهم مُجحفة، ومتقاعدين ومعارضين ومجرمين وقتلة ومحكومين، وكان لدينا مهمة التعرف بهم، والتقرب منهم، وجَسّ نبضهم، ومعرفة مدى استعدادهم لمحاربة النظام، وكنّا نختار بعضهم من دون أن يعرفوا بعضهم البعض، ونساعدهم بتكوين أنفسهم، وكان البنك يموّل صفقات أسلحة خفيفة عن طريق وسيط من دولة ثانية وثالثة تحكمها حالة عداء مع الدولة التي وضعت على الخريطة لإسقاطها، فكنّا نبني مجموعات دينية ومجموعات مسلحة ومجموعات مثقفة ومجموعات سياسية ومجموعات مدنية وكانت كل مجموعة تعتقد بأنها تتجه لإنشاء دولتها الموعودة ونحن نحاول بجهد أن نقنع كل مجموعة أنها المجموعة الوحيدة ويجب أن تستقطب أكبر عدد ممكن من الناس ليكون لها قاعدة جماهيرية تبني على دعمها دولتها التي تريد.

والبنك كما هو مُتعارف عليه يملك المال ولا يملك السلاح، ولكنه يتعاون بكل شيء، بكل صفقات المخدرات والذهب والماس وغسل الأموال وتمويل الحروب ولكن عن طريق طرف ثان وثالث وعاشر وألف، وكل وسيط مؤثر لديه وسيط آخر، والآخر لديه وسيط يجد رجُلاً يملك من الطمع والطموح ما يوازي قدرته على الإقناع كشيخ قبيلة؛ فيتم إقناعه بأن يُقنع جماعته بتحريم مانراه خيراً لمصلحتنا، وكما ترى هذا ما يحدث في الدول الساخنة ..

قلت: أعتقد بأني فهمت ما تحاول إيصاله لي؛ بأنّ كلّ ما يجري هو مؤامرة منظمة، ولكن ماذا يستفيد البنك بإنفاق الملايين والمليارات لتمويل رموز المعارضة السورية بالسلاح؟؟

قال: ليس رموز المعارضة فقط بل العصابات المسلحة أيضاً لأنه هو من أوجدها لتنفيذ هذه الأعمال؛ والخلايا النائمة سياسياً وعسكرياً وإعلاميا ودينياً ومدنياً، أمّا ماذا يستفيدون؟

فالإفادة كبيرة وكبيرة جداً..

هم يكلفون الوكلاء بأن يلتقوا أولا" برموز المعارضة التي ستقوم بالأعمال العسكرية ورموز المعارضة السياسية التي في داخل البلد وخارجه، ورموز العصابات الدينية والتكفيرية، ويتم إقناعها بتوقيع اتفاق الشيطان والذي ينص على تمويل هذه الحركة وتوفير كلّ الدعم المادي والسياسي والعسكري حتى تنجح مُقابل التوقيع على عقود تسمح لهذه الدول التي تشارك في المساعدة لإيصالهم للحكم بتنفيذ إعادة البناء بتمويل البنك الدولي مقابل فوائد.

قلت له: ألهذا تمّ دعم المعارضة وإنشاء ما يُسمّى أصدقاء سورية، ودعم المسلحين بالأسلحة عن طريق تركيا والسعودية وقطر وغيرها؛ وفي نفس الوقت يتم تدمير كل شيء في سورية؟

تدخّل البروفسور فريدرك وقال: وكلّما تم إطالة أمد الحرب؛ كلّما تعاظمت الفاتورة وازدادت الفوائد التي سوف يتم تسديدها بعد انتهاء الحرب.

قلت: وماذا لو لم تنجح المعارضة بتغيير الحكم؛ ولم تسيطر على القرار الذي يسمح لها بالموافقة على ما وقعته سابقا من تعهد!؟

قال: الهدف رقم واحد هو تدمير البلد، وثانياً لابدّ من الأعمار؛ وبغياب الدول الشقيقة التي تمّ تحريضها وعداوتها لن تجد سورية إلا البنك الدولي ليؤمّن لها مئات المليارات لإعادة البناء وعودة المُهجّرين.

قلت مخاطباً الجميع: هل كل هذه الحرب والتدمير والتهجير والعداوة والكراهية من أجل إقراض ديون وفوائد!؟

أكاد لا أُصدّق!!..

تدخلّت ليزا قائلة: بل صدّق يا عزيزي..

هو فعلاً يريد خلق فرص عمل للشركات الأوربية، ويريد الفوائد المالية المُستحقّة على الأموال التي صرفها من أجل التدمير، والأموال التي صرفها من أجل الأعمار، والتي هي بالأصل أموال الدول الخليجية، ولكنّ الغاية من وراء كل هذا .. السيطرة ..

قلت مستوضحاً: السّيطرة!!

تحدّثنا عن هذا سابقاً ولكن كيف!!؟؟

قال البروفسور فريدريك: من يُغرق العالم بالديون؛ ويصبح عاجزاً عن تسديد الديون والفوائد؛ سيتم رهن قراره السياسي والاقتصادي للبنك الدولي لإيجاد الوسيلة المناسبة لاسترداد الفوائد، وهذا ما حدث هنا في اليونان حين أُغرقت بالديون من أجل بناء مشاريع سياحيّة ضخمة، ثم اتجهت لتركيا تدعم اقتصادها لتكون قدوة للعالم العربي والإسلامي على حساب جارتها اللدودة اليونان التي

سقطت في العجز المالي بعدم قدرتها على تسديد الديون والفوائد التي تتراكم كل عام..

وهذا ما حدث في تونس ومصر لدرجة أصبحت مصر مهددة بالإفلاس، ولهذا لن يستطيع أيّ رئيس من نقض أيّ اتفاقية مع إسرائيل أو إعلان أيّ حرب لأنّه مديون؛ والبنك الدولي يتحكّم برغيف الخبز المصري والتونسي والسوداني واللبناني واليمني..

وهذا ما يريدون فعله بسورية التي لم تكن مديونة أبداً والتي كانت مُكتفية ذاتياً، ولم يكن المصرف التجاري السوري مرتبط بالبنك الدولي كما هو حال لبنان البلد الصغير الذي وصل حجم دينه إلى أكثر من سبعين ملياراً ومازال حتى الآن يدفع فوائد القرض الذي حصل عليه من أجل التّغلب على مصاريف فيضانات ١٩٥٨ .

قلت: أريد أن أتوقف قليلاً أمام بعض ما جاء في كلامك الأخير؛ وأفهم عدة أمور؛ أولها بما يتعلق بتركيا. ماذا تقصد بأنّ البنك الدولي دعم تركيا لتكون قدوة للعالم العربي والإسلامي؟؟

قال: لنفس الأسباب وصل الأخوان المسلمين إلى السلطة في تركيا، وتمّ دعمهم بشتّى الوسائل ليرى العالم العربي بأنّ وصول الأخوان إلى السلطة قد جعل الاقتصاد التركي في أحسن حالاته، وأنّ العالم كُلّه يتعامل معهم باحترام؛ فلماذا لا يصل الأخوان والإسلاميون إلى السلطة في البلاد العربية وينجحوا وينقذوا الاقتصاد ويكسبوا احترام العالم كما فعلت تركيا.. وتكفّل بالمهمة بعض العرابين الأوروبيين والأمريكيين الذين التقوا شخصيات إسلامية وقيادات أحزاب مع أُمراء الخليج لتسهيل دعم مالي وسياسي وإعلامي؛ وكان لابد من زلزال عنيف يُحرّك الناس؛ فابتدعوا ما يشبه الانتفاضة الفلسطينية وأطلقوا عليها إسم الربيع العربي باتفاق بين منظمات مدنية وغير حكومية ودعم لوجستي؛ وهذا ما حدث فعلاً في تونس ومصر.

قلت: وهكذا وصل الإسلاميون للحكم في كل من تونس ومصر؟
قال: تماماً.. ولكن لن يستمروا أبداً..

قلت: بما أنهم لن يستمروا.. فلماذا راهنوا عليهم منذ البداية؟؟
قال: هذا هو المطلوب تماماً؛ استفادوا بإيصالهم للحكم؛ وسيستفادوا أكثر بعزلهم منه.

قلت: ماذا استفادوا بإيصالهم للحكم؟

قال: أشياء كثيرة؛ أولها أنّ وصول الأخوان للحكم كان مُجرّد حُلْم صعب المنال، ولتحقيق هذا الحُلْم وافق الأخوان على شروط كثيرة قبل البت بنتيجة الانتخابات التي انحصرت مابين شفيق ومرسي..

سألت بسذاجة: وهل وافقوا ؟؟

تأمّلني بهدوء قائلاً: أنت تعرف بأنّهم وافقوا؛ وإلّا لما وصل مرسي للحكم؛ فلماذا تسأل؟

قلت: أسأل لأعرف إذا كان بالإمكان أن تقول لي الشروط التي وافقوا عليها؟

قال باسماً: يُعجبني الرّجُل الذّكي؛ ولكن أنت لا تسأل عن الشروط بل تسأل لتعرف على ماذا وافقوا؟

قلت له: ليكُنْ.. أنا لا أُنكر هذا، ولكن على ما يبدو لا ينقصك الذكاء أيضاً يا صديقي.

قال: شكراً.. وسأوضّح لك أمراً مهماً.. حين أنهت مارجريت سكوبي عملها كسفيرة للولايات المتحدة الأمريكية في مصر تمّ تعيين آن باترسون كسفيرة في القاهرة وقبل استلامها عملها قامت بزيارة إلى إسرائيل وأقسمت أمام الحائط المبكى على أن تسعى جاهدة" لمساعدة إسرائيل في الحصول على حقها من العرب المجرمين وتسعى جاهدةً أن تنتقم لليهود بتشتيت العرب في دول العالم

وتسعى لعودة اليهود من جميع أنحاء العالم ليعيشوا في دولة يهودية حدودها من الفرات إلى النيل، ولهذا نجحت في ترويض الرئيس مرسي وأصبح قصر الاتحادية تحت تصرفها؛ وأصبحت تتصرف وكأنّها الحاكم فيه، وأكثر من ذلك استطاعت أن تحصل من مرسي على وثائق مهمة جداً تثبت ملكية اليهود للمشاريع المصرية التي أسّسوها قبل أن يصادرها عبد الناصر ويطردهم من مصر.

قلت باستغراب شديد: وما أهمية هذه الوثائق الآن؟

قال: هذه الوثائق مهمة جدّاً يا صديقي؛ فهي تثبت أن ما كان يملكه اليهود في مصر كثير؛ وكثير لدرجة تجعلهم يعودون أسياداً على مصر؛ لأنه يثبت بالوثائق أنّهم المُلاك الأصليون لمصر وليس كما هو متعارف عليه الآن..

وباستغراب أيضاً: ألهذه الدرجة!! أكاد لا أصدق!! هل لي ببعض الأمثلة؟

قال: الوثائق تُثبت بأنّ اليهود هم من بنوا الأهرامات وليس الفراعنة؛ وأنّ مصر سرقت قناة السويس حين تمّ تأميمها بعد ثورة يوليو، وهناك وثائق عن أملاك وعقارات ومشاريع تعود ملكيتها لليهود.

سألته: ماذا يمكن أن تفعل إسرائيل لتُثبت حقّها وتُرغم مصر على الاعتراف بذلك ؟.

قال: ليس مصر فحسب بل العالم العربي كلّه؛ فهذه الوثائق التي حصلت عليها من مصر ، حصلت على مثلها من تونس والسعودية والعراق والسودان والمغرب وليبيا وإيران ولبنان وسورية وبقية الدول العربية.

قلت: انتظر لحظة.. أشعر بأنّني تذكرت الآن ما قاله لي البروفسور توماس حول تكليف أشهر الخبراء القانونين بالعالم لوضع دراسة كاملة ستُحْدث تغييراً جذريّاً في قضية الصراع العربي الإسرائيلي.

قال: نعم .. فقد ضخّت وزارة الدفاع الإسرائيلية مبلغ مليون دولار لتغطية تكاليف الخبراء القانونيين لدراسة قانون سيُطرح على الأمم المتحدة والمحكمة الدولية ويتمثّل بعدّة نقاط أهمها: - إسرائيل تُطالب مصر بردّ أملاك اليهود المصريين الذين تركوا المدن المصرية منذ عام ١٩٤٨.

- إسرائيل تُطالب كل من الدول العربية التالية: / مصر وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والسودان ولبنان وسورية والعراق والأردن والبحرين/ بتعويضات /٣٠٠/ مليار دولار أمريكي عن أملاك حوالي مليون يهودي منذ عام ١٩٤٨ .

- إسرائيل تُطالب المملكة العربية السعودية بدفع تعويضات /١٠٠/ مليار دولار مُقابل أملاك اليهود في المملكة منذ عهد الرسول وحتى الآن.

- إسرائيل تُطالب إيران بدفع تعويضات /١٠٠/ مليار دولار عن مئات القتلى والمفقودين من اليهود الإيرانيين الغير معروف مصيرهم حتى اليوم.

قلت: نعم هذه المعلومات أخبرني بها البروفسور توماس منذ فترة؛ وأعرف بأنّ هذه الدراسة سيتمّ التصويت عليها أولاً بالكنيست الإسرائيلي للتصديق عليها ليتمّ تنفيذها من خلال طرحها بالأمم المتحدة. قال: تماماً، ومن خلال هذه القضية تكون إسرائيل قد ضربت عصفورين بحجر واحد..

العصفور الأول: الاعتراف بأنّ اليهود هُمْ سكان الشرق الأصليين قبل مجيء الرّسول وهذا ما يُفسّر تحديد الفترة الزمنية بتعويضاتهم من السعودية منذ تلك الحقبة.

والعصفور الثاني: المال الذي سيضع العالم العربي على حافة الإفلاس، والبداية ستكون من مصر حين سيُحْكم لإسرائيل بتعويضات خياليّة ليدفعها المصريون بقروض من البنك الدولي؛ ويضعهم في حالة إفلاس فلا يستطيعون دفع أقساط قروض البنك الدولي، وهنا سيأتي دور مجلس الأمن ليُجبر مصر على تنفيذ الاتفاق الذي سينص على حق اليهود بالعيش في دولة من النيل إلى

الفرات مقابل عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى غزّة وسيناء والضّفة والأردن وسيكون القرار جبريّاً.

قلت: أشعر وكأنّني في حُلْم... قل لي بأنّ كلّ ما قلته مُجرّد أحلام وافتراضات..

قال: لا.. ليس حلماً بل حقيقة؛ وسيتحقّق؛ ولهذا كان سيناريو الرّبيع العربي.

سألته: إذا كان هذا جزءاً من الاستفادة بإيصال الأخوان للحكم؛ فما هي الاستفادة بعزلهم منه؟؟

أشار بأصابع يده السبّابة والإبهام وقال: هناك الأول والثاني:

- **الأول:** يجب أن يفشلوا بالحُكْم؛ وذلك من خلال عدم قدرتهم على تقديم أي شيء إيجابي للشعب، وأولها عدم إلغاء الاتفاقيات المُوّقعة مع إسرائيل، ولا تأمين فرص عمل جديدة، ولا توفير خدمات مجانية للمواطن، وتخبُّطهُم في قرارات مُخزية تُفقدهم ثقة ومحبة واحترام الشعب؛ الذي سيجد له سنداً للتمرُّد ولاسترداد الحكم من جديد للسلطة العسكرية .

- **والثاني:** عندما سيخسر الأخوان الحُكْم - الحُلْم - سيجتاح الأخوان والإسلاميون الغضب؛ ويتملّكهم الحقد بأن ثمّة من اغتصب حقهم بالحكم، وهذا سيخلق مواجهة - موجهة - مابين الأقطاب الثلاثة:

- **القطب الأول:** هم الإسلاميون الّذين فقدوا السلطة، وهم بالحقيقة لم يملكوا أيّ سلطة فعلية!.

- **والقطب الثاني:** هم العلمانيون الّذين يعتقدون بأنّ لهم الحق بالحكم لأنهم من أطلق الثورة، وهم بالحقيقة كانوا مجرد أداة تنفيذ!.

- **والقطب الثالث:** هم العسكريون الذين سيعودون للحُكْم بقوة؛ ليضربوا بيد من حديد، وهم يعرفون ذلك منذ البداية وتحديداً منذ زيارة وزير الدفاع المصري والتونسي إلى أمريكا قبل الربيع العربي!.

صراع الأقطاب الثلاثة؛ سيخلق فوضى خلّاقة في الشارع المصري يقود إلى إضعاف الجيش والاقتصاد وإلى البطالة والفقر والجهل؛ ويُسهّل السيطرة عليها من خلال رزمة ديون تُكبّلها بقيود مدمرة.

قلت: أنت تستبق الأمور؛ وكأنك متأكد من سقوط مرسي والأخوان فعلاً؟؟

ضحك وقال: نعم أنا متأكد يا صديقي؛ وتذكّر جيداً في نهاية هذا الشهر وتحديداً في ٣٠ يونيو ستكون بداية النهاية لمرسي والأخوان.. ثمّ أشار بيده: مرسي خلص.. بَحْ.. يعني انتهى وانتهى حُلم الأخوان لأنّ دورهم في مهمّتهم الأولى انتهت كحُكْم.

قلت: وهل هناك مهمة ثانية للإخوان؟

قال: طبعاً يا صديقي.. وسيكون الوضع بالنسبة لمصر أسوأ لأنهم سيشعرون بأن هناك من وجّه لهم إهانة وسرقهم وسيحملون السلاح للثأر.. وهذه هي المهمة الثانية المرسومة لهم، ودورهم أن يحملوا السلاح ويعتمدوا أسلوب التفجيرات والاغتيالات ونشر الخوف والرعب...

قلت: أكاد لا أصدق أن مصر أكبر دولة عربية، مصر عبد الناصر تصبح هكذا؟

قال: ومن كان يصدق ما حدث في تونس ومصر وليبيا واليمن والسودان والعراق وسورية !؟

قلت: أعرف ما حصل في الدول التي ذكرتها؛ ولكنّي أريد أن أعرف ما لم أعرفه!؟

قال: لقد ماتت العروبة وانتهت في الدول التي مرّ بها الربيع العربي، وسأخبرك بشيء مهم لا يعرفه إلّا قلّة قليلة جداً..

قلت: ما هو؟؟

سألني: هل تعرف – روبرت ساتلوف!؟

قلت: أنت تقصد المدير التنفيذي لمعهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى!

ضحك وهو يقترب من إليزابيت: نعم.. وأضاف موجهاً كلامه إلى إليزابيت: – قولي له من هو روبرت ساتلوف..

قالت: روبرت ساتلوف هو مؤلف كتاب / الهولوكوست والعرب – حقائق منسيّة / ويحاول أن يؤكد بأنّ للعرب دور الهولوكوست.. وذلك لأنه يكنّ هو ومعهده العداء للعرب والمسلمين.

سألته: ولكن لماذا سألتني عن روبرت!؟ – وما علاقة العرب بالهولوكوست!؟

قال: سألتك عن روبرت لأنه صديق شخصي للكثير من القادة العرب وعلى رأسهم ملك الأردن عبدالله الذي يستمع وينفذ قسماً كبيراً من أفكاره من خلال معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، وسأكشف لك سراً لا يعرفه أحد وهو التالي: لأول مرة سيُعقد مؤتمر للهولوكوست في تونس قبل نهاية عام ٢٠١٣ ..

قلت باستغراب شديد: مؤتمر للهولوكوست في دولة عربية!! هذا مستحيل .. ولماذا تونس بالذات!؟

قال: المؤتمر سيُعقد برعاية – الجمعية التونسية لدعم الأقليّات – ومؤسسة التفاهم العرقي والتي تتخذ من نيويورك مقراً لها، وبمُباركة من الرئيس المنصف المرزوقي، وذلك لإحياء ذكرى ٥٠٠٠ يهودي تعرّضوا لأعمال السخرة خلال الاحتلال الألماني النازي لتونس.

قلت: وجمعية النهضة التي كانت تردّد دوماً خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سيعود.. فهي الحاكمة الآن في تونس ولن توافق أبداً؟؟

قال: بل لن تعترض؛ وسيُعقد بموافقتها أيضاً؛ وهذه الخطوة تحسب من ضمن التنازلات التي قدّمها الأخوان المسلمين من أجل الوصول إلى الحكم، تماماً نفس السيناريو المصري وغيره من الدول العربية، ألم أقل لك ماتت العروبة بالدول التي مرّ بها الربيع العربي..

قلت: هل كل هذا بإشراف البنك الدولي فعلاً!؟

قال: نعم ولكن ليس بشكل مباشر، وأتمنى أن تعرف شيئاً مهماً:

- حين أُنشيء البنك الدولي في بريتون وودز الأمريكية عام ١٩٤٤ بحضور ٤٤ دولة؛ كان الهدف العام للبنك هو تشجيع استثمار رؤوس الأموال بغرض تنمية الدول المنضمة إليه والتي تكون بحاجة لمساعدته في تمويل مشاريع ضخمة بحاجة لها تماماً كما حدث في تمويل السد العالي في مصر، ومن شروط انتساب أي دولة لتصبح عضواً في البنك الدولي يجب أن تنضم أولاً لصندوق النقد الدولي ومؤسسة التنمية الدولية ومؤسسة التمويل الدولي وهيئة الاستثمار المتعدد الأطراف.

قلت: إذاً البنك الدولي تابع لهيئة الأمم المتحدة، فما علاقة عائلة روتشيلد؟ وما حقيقة البنك الدولي بتمويل الصراعات وتغذية الانقلابات في محاولة للسيطرة على العالم؟

قال: اليوم أصبح عدد الدول الأعضاء في البنك الدولي ١٨٥ دولة وكما هو مدوّن في السجلات أن عدد العاملين حوالي ثمانية آلاف موظف؛ وحوالي ألفين موظف في العمل الميداني يعملون بطريقة سلمية قانونية وأخلاقية، ولكن في الحقيقة هناك موظفين تابعين ويعملون في الخفاء كوحدات منفصلة متصلة في مهام خاصة على مساحة الكرة الأرضية وبتسهيلات من زعماء وقادة ورجال أعمال وفلاسفة لتسهيل المهمات غير الشرعية من أجل تعزيز سيطرة البنك الدولي على العالم، ولا أقصد الدول فقط بل في البر والجو والبحر..

قلت: أشعر وكأن عائلة روتشيلد أصبحت تحرك العالم وكأنهم دمى أراجوز!!

قال: وهذا هو التعبير الصحيح الذي أردت أن أوصله لك، وستتأكد أكثر حين تعرف كيف تتصرف وكيف تحركهم كأحجار الشطرنج، وذلك لتحقيق وتنفيذ الخطط المرسومة من أجل تحقيق حلم السيطرة

قلت: وعلى ماذا ترتكز في تحقيق ذلك!؟

تدخلت إليزابيت لتجيب بسرعة: تُركّز وتَرْتكز على نقطتين هامتين هما:

١ – إضعاف العلاقات العربية – العربية لدرجة قتلها وموتها بشكل كامل.

٢ – إنعاش الطائفية تمهيداً لإنشاء دويلات تقوم على أساس طائفي.

سألت فريدرك: ماهو الخطر الحقيقي الذي يخافه الغرب!؟

قال: القومية العربية، ولهذا تضع في اعتبارها بأن العالم العربي هو عبارة عن مخلوقات غير طبيعية، والحل الوحيد هو إقامة دويلات جديدة عشائرية وطائفية .

ثم سألني: هل قرأت كتاب شمعون بيريز – الشرق الأوسط الجديد؟

فأجبت بلا مبالاة: لا.. لا يهمني ولست مُضطراً أن أقرأ أكاذيبه..

ضحك وقال: هناك قول مهم: أعرف عدوك، ويجب عدم الاستهزاء والاستخفاف بما يقوله العدو، بل يجب الاهتمام بكل كلمة وتحليلها لمعرفة نواياه والاستعداد له.

قلت: معك حق، ويمكن عدم اهتمامي أنني تعودت على أكاذيب العدو..

قال: ليس دائماً.. أحياناً العدو يتصرّف كالثعلب.. يرمي الحقيقة بين الأكاذيب وعلى المراقب الذكي، والمُحلّل الواعي أن يكتشف الحقيقة بين جبل الأكاذيب.. ومن أهم الحقائق التي مرّرها شمعون بيريز في كتابه هو حدود خريطة الشرق الأوسط الجديد

حيث قال:

إنها تمتد من حدود مصر الغربية حتى حدود باكستان الشرقية، ومن تركيا وجمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية شمالاً حتى المحيط الهندي وشمال السودان جنوباً .

وهذه الحدود تجمع دولاً عربية وإسلامية فيها، وتبقى خارج هاتين الدائرتين إسرائيل فقط .

قلت: دعني أستوضح بعض النقاط .. هل هذا يعني تدمير سايكس بيكو القديم !؟

قال: نعم .. لقد اتضح أن حدود سايكس بيكو التي رسمتها بريطانيا وفرنسا في القرن التاسع عشر هي حدود عشوائية وغير عادلة، ولهذا وضعت الخطط الجديدة ليتم رسمها من جديد

وشعرت وكأنني أقف على رمال مُتحرّكة، وأصبحت في حالة فضول لأفهم وأعرف لماذا كتب على العرب أن يبقوا مُجرّد أدوات؛ أو مُجّرد فئران تجارب للآخرين؟؟

وسألته من جديد: هل أستطيع أن أعرف ما هي هذه الخطط التي رُسمتْ للأمة العربية، وكيفيّة تنفيذها رغماً عنهم؟؟

قال: انطلاقاً من الإدّعاء، وأتمنى أن تضع خطاً أحمر تحت كلمة – الإدّعاء – إعطاء الأقليّات المذهبية أو القومية والإثنية حقوقها المسلوبة رغم تعايُش وتناغُم وتداخُل التّفاهُم فيما بينها، إلّا أنّ هذه المجموعات المختلفة والمتعدّدة الأعراق تُعْتبر الحدود الأكثر تشابكاً وفوضوية في العالم، وإنّ هذه الحدود تعمل على إثارة الحروب في المنطقة، ولذلك يجب تغييرها وإعادة رسمها من جديد، ورسم هذا التغيير في خريطة الشرق الأوسط..

قلت باستغراب: لماذا !؟

قال: ببساطة لأنّهم يعتقدون بأنّ حدود الشرق الأوسط تُسبّب خللاً وظيفياً داخل الدولة نفسها، وبين الدول الجارة القريبة، خاصّة من خلال الاضطهاد ضدّ الأقليّات القومية والدينية والإثنية، أو بسبب التّطرُف الديني أو القومي والمذهبي، ولهذا من الأفضل إنهاء هذا الأمر مهما كان الثمن، وفي أسرع وقت ممكن.

– قلت: وما هي الحُجّة التي سيتم تسويقها سياسياً وإعلامياً لتنفيذ هذا المخطط!؟

قال: ببساطة سيتم تسويق عنوان جذاب / .. أن الغاية من كل هذا التعديل هو تحقيق نوع من الديمقراطية والحرية، والأهداف الإنسانية التي تتعلّق بالأقليّات في الشرق الأوسط مثل الأكراد ، والشيعة العرب / .

قلت: ولكن هذه التعديلات قد لاتُحقّق مصالح أقليات أُخرى!!

قال: باعتقادهم إن تحقيق نوع من السلام عبر تعديلات في الحدود الجيو– سياسية – لدول الشرق الأوسط بنشر نوع من الديمقراطية من خلال نشر قواعد عسكرية غربية للمساعدة المباشرة في السيطرة على بؤر الإرهاب، قد يؤمّن تدفُق النفط بشكل تام وكامل للغرب بدون أي قيود

– قلت: وما هو الفرق مابين سايكس بيكو؛ ومشروع الشرق الأوسط الجديد !؟

قال: اتفاق سايكس بيكو أدّى مهمته حتى الآن، وضرورة تنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد يصبّ لمصلحة الجميع لأنّه يُراعي مصالح القوميات والإثنيات والمذاهب والمجموعات المنتشرة على أساس وقائع ديموغرافية تشمل الجميع

قلت: أجد صعوبة كبرى لتنفيذهم مثل هذا المشروع!!

قال: سيتم الترويج لهذا المشروع لضمان توافق لإرادات شعوب الأقليات التي ذكرتها، وقد تكون مستحيلة حالياً، ولكن مع السماح بحروب داخلية؛ ومع

الوقت اللازم؛ وعلى المدى الطويل مع تغذية الأقليات بالمال والسلاح لسفك أكبر قدر من الدماء من جميع الأطراف لخلق كراهية فيما بينهم؛ أعتقد بأنّه سيتم الوصول بسهولة لتنفيذ هذه الغاية.

قلت: هذا يعني أنّ دولاً جديدة ستنشأ في منطقة الشرق الأوسط الجديد؟

اقترب من خريطة العالم العربي ووضعها أمام جهاز كهربائي مُكبّر وأمسك قلماً أحمرَ اللون ورسم دائرة قائلاً:

- **أولاً الدولة الكردية:** يُعتبر الأكراد أكبر قومية في العالم؛ ولا يعيشون في دولة مستقلة؛ ويشعرون بأنّهم تعرّضوا للظُلم من كل دول المنطقة العربية والإيرانية والتركية، ولهذا سيكون لهم – دولة كردية مستقلة – بحيث تكون قادرة على استيعاب حوالي أربعين مليون كردي .

قلت: أين وكيف ستكون هذه الدولة !؟

قال: هناك عدة خطوات بدأ تنفيذها لتحقيق هذه الدولة؛ وكانت الخطوة الأولى حين بدأ الموساد بالتعاون مع الأكراد؛ وقضية قصة حلبجة؛ وسقوط صدام؛ ورسم خريطة تقسيم العراق إلى ثلاث دول، عندها سيصوت برلمان كردستان بنسبة مئة بالمئة لصالح قيام دولة كردية مستقلة حين تحين الفرصة والوقت المناسب.

وسيتم الترويج للجزء الشرقي من تركيا على أنّها منطقة مُحتلّة وسيتم الضغط على تركيا أوروبياً من خلال دعم أكراد تركيا بشن هجمات في العمق التركي للضغط أيضاً على تركيا للتخلي لهم عن الجزء الشرقي لقيام الدولة الكردية المستقلة في العراق وتركيا، ومن ثم سينضم لهم أكراد سورية وإيران بمناطقهم مباشرة ليتم تشكيل دولة كردستان الكبرى المستقلة بحدودها النهائية الممتدة من ديار بكر في تركيا إلى تبريز في إيران.

.... كان يتكلم عن حدود الدولة الكردية وكأنها أمر واقع في حكم المؤكد، وكنت أستمع إليه تارةً وأُدقّق بالخريطة أمامي تارةً أخرى، وأتصوّر

خريطة كردستان المقتطعة من إيران وتركيا والعراق وسورية ، وأتعجّب لهذا التخطيط الشيطاني..

سألته: وثانياً؟؟

أمسك بقلم أصفر ورسم دائرة على جزء من الخريطة وقال:

- **ثانياً الدولة الشيعية العربية:** ستمتد من الجزء الغربي من إيران والمعروفة بمنطقة الأهواز أو عربستان والتي تضم غالبية الشيعة العرب في إيران؛ والجزء الشرقي من المملكة العربية السعودية والتي تضم الأكثرية من الأقلية الشيعية في السعودية.

وفجأة سألته بلهفة: هل هذا يعني أن المملكة العربية السعودية سيتم تقسيمها أيضاً؟؟

فرفع يده مشيراً لأصابعه الخمسة وقال: سيتم تقسيم السعودية إلى خمسة أقسام وبقلم أزرق بدأ يقسّم السعودية كما يلي:

- **القسم الأول:** سيتم رسمه مع الدولة الشيعية العربية كما تحدثنا عن الدولة الشيعية العربية .
- **القسم الثاني:** هو الجزء الذي يقع في شمال غرب وشرق المملكة، سيُفصل عن المملكة وسيتم دمجه مع الأردن بحدوده الحالية ليصبح دولة الأردن الكبير؛ وسيكون مكاناً نهائياً لفلسطينيي الشتات، وبهذا يتم إيجاد حل نهائي لإلغاء حق العودة لفلسطين نهائياً.
- **القسم الثالث:** هو الجزء الذي سيضم كل المدن الدينية: مكة المكرمة والمدينة المنورة الذي سيحكمها مجمع ديني من مختلف الطوائف والمذاهب الإسلامية؛ وتصبح مرجعاً لكل المسلمين بالعالم .

- **القسم الرابع:** هو الجزء الواقع جنوب السعودية، وسيتم إلحاقه بالجمهورية اليمنية لتصبح أكبر مما هي عليه الآن.
- **القسم الخامس:** سيُبْقي المملكة السعودية دولة سياسية في القسم المُتبقي.

وما كاد ينطق بآخر كلمة حتى وجدت نفسي أهتف واوووووو ..

شيء لا يُصدّق وأشبه بالحلم..

وفجأة سطعت أنوار زورق للجاندرما التركية؛ وطلبوا بمُكبّرات الصوت أنْ يصعدَ إلى سطح المركب كل الّذين في الزورق..

كنت أحاول أن أسيطر على خوفي وأنا أتذكر ما حدث لقافلة الحرية، فشدّت إليزابيت على يدي قائلةً:

– لا تخَفْ نحن بالمياه الإقليمية الدولية؛ ولسنا في المياه التركية..

وبلغة إنكليزية ركيكة كان الضابط التركي يسأل عن سبب وجودنا بالمياه الإقليمية في هذا الوقت المتأخر من الليل، فرد عليه فريدريك ضاحكاً: تناولنا العشاء وشربنا أوزوا تركي وتوغّلنا بالبحر لنستمتع ببزوغ الفجر ونحن في البحر..

ثم توجّهت إليزابيت بالسؤال للضابط التركي:

– هل هناك قانون يعاقب على وجودنا هنا!؟

فردّ عليها الضابط التركي قائلاً:

– لا.. ليس هناك قانون يعاقب أو يمنع ذلك، ولكن ما سبب وجودكم لأكثر من ثلاث ساعات من دون أي تلفون نقّال أو أي جهاز اتصال؟؟؟

فضحك فريدريك قائلاً:

– لدينا جهاز الاتصال الموجود بالمركب يا...

فقال الضابط بلهجة الأمر: غادروا من حيث أتيتم... وبسرعة...

وغادر المركب التركي، وتنفست الصعداء.

وفي طريق العودة للمياه الإقليمية اليونانية سألت فريدريك عن سبب سؤال الضابط التركي عن أجهزة الاتصال؟

فقال: إليزابت أغلقت كل الموبايلات وسحبت البطاريات والأرقام قبل صعودنا للمركب.

وشرح لي أن وجود الموبايلات أو الهوتميل أو السكايب أو الفايسبوك يُسهّل جداً عملية التنصت والمراقبة، وهذا ما أثار حفيظة الأمن التركي..

قلت: حدثتني عن تتمة تقسيمات الشرق الأوسط الجديد ..

قال: أريد أن أسألك أولاً: هل شعرت بالخوف للحظة حين اقترب الزورق التركي؟؟

قلت: بصراحة نعم خفت؛ ولأسباب كثيرة أولها أنني لا أريد أيّ مشاكل في الوقت الحاضر، وثانياً والأهم وجودك أنت وإليزابيت وبعض شلّة الهاربون فحتماً تسرّب الخوف لقلبي بأننا وقعنا بالمحظور..

فضحك وحضنني ومشى بي للطابق السفلي من الزورق، واقترب من الخريطة وقال: بعد الدولة الكردية الكبرى؛ والدولة الشيعية العربية، هناك دولة سورية الكبرى..

ولمَعتْ عينيّ بالفرحة وأنا أسمع بدولة سورية الكبرى بعدما سمعت بتقسيم المملكة العربية السعودية فشعرت بشيء من رد الاعتبار وقلت في نفسي: إنّ الله يُمْهل ولا يُهْمل، وأنه آن الأوان لدول الشر والتخلف أن تتذوّق من السُّم الذي بثّته في البلاد العربية.

سألته: كيف ستكون حدود سورية الكبرى؟

قال: قبل أن أقول لك كيف ستكون حدود دولة سورية الكبرى، دعني أقول لك أولاً أنه سيتم تقسيم العراق إلى ثلاث أقسام؛ وعلى أساس طائفي بحت.. بحيث يكون القسم الكردي في الشمال، والقسم الشيعي في الجنوب،

والقسم السنّي في الوسط . القسم السنّي سيصبح دولة بلا مقومات لأنه سيقع مابين مطرقة الدولة الكردية الكبرى في الشمال وسندان الدولة الشيعية العربية إلى جنوبه؛ ولهذا سيضطر مُرْغماً للانضمام إلى سورية مقابل إجبار سورية للتخلي عن جزء صغير منها لضمه إلى لبنان لتشكيل دولة لبنان الكبير على البحر الأبيض المتوسط من أجل إحياء دولة فينيقيا..

قلت ساخراً: تأكد ليس هناك قوة على الأرض تستطيع إجبار سورية على التخلي عن أي جزء منها..

قال: أفهمك يا صديقي.. وأتفهم شعورك وشعور كل مواطن يجد وطنه مهدد بالتقسيم ولكن.. أنا أتكلم عن مخطط رأيته بعيني، وهناك من يسعى لتنفيذه بالقوة ومهما كلّف الأمر..

سألته بفضول: ومن سيكون الخاسر الأكبر في هذا المخطط الدموي!؟

قال: اسمع يا صديقي.. وصلنا رودس الآن.. ولكن قبل أن نذهب للنوم سأقول لك الخاسر الأكبر هم العرب وتحديداً المملكة العربية السعودية وتركيا وباكستان، وغداً سنكمل بقية الجمهوريات.

جزيرة رودوس – فندق لويس كولوسيوس بيتش . فاليراكي .

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة صباحاً حين وصلت فندق لويس كولوسيوس بيتش في فاليراكي... استقبلتني عاملة الاستعلامات ضاحكةً كعادتها:

– يبدو أن سهرتك كانت طويلة ومتعبة؟

وقبل أن أجيب قالت: تبدو متعباً أيضاً سيدي.. فابتسمتُ لها مؤكداً أنني بخير وفي أحسن حال.. فوضعت يدها دلالة على تحدّي الكباش.. ووضعْتُ يدي بيدها متحديّاً.. فدنت مني قائلةً: لو سمَحْت لي أن أفوز سأخبرك بخبر هام..

ووسط ذهولي وحيرتي رمَتْ بيدي على الطاولة بينما صديقتها التقطت صورة لفوزها وفرحها؛ ثم همست لي بحزن: طائرتان تركيتان اخترقتا الأجواء اليونانية اليوم من دون أي مقاومة..

وبغضب أكملت حديثها: ولم تسقط اليونان أي طائرة منهما كما فعلت سورية منذ فترة قصيرة...

أخذت مفتاح غرفتي؛ وأوصيت على فنجان قهوة، وصعدت المصعد للطابق السابع..

وقفت على الشُرفة أتأمّل البحر المُمْتد إلى لانهاية في محاولة للوصول إلى الساحل السوري.. وجلست أفكر..

– ما هذا الذي يحدث!؟

– وكيف تمّ التخطيط لكل هذا ونحن لا نعلم شيئاً؟؟

– وما أهمية كل هذا وسط بحر من الدّم تغرق فيه إنسانية الإنسان؟؟

– وما هو مصيرنا نحن!؟

شعرت بتعب نفسي، وحزن وألم يكاد يخنقني، فخلعت ملابسي ونزلت البحر مع إشراقة الشمس، وغمرت نفسي تحت الماء أسبح وأسبح وأسبح حتى كدت أختنق، فخرجت من الماء واستلقيت على الرمال أملأ رئتيّ هواءً نظيفاً.. وغَفَوْت لدقائق ثمّ عدت إلى غرفتي، ونمت دون أن أتمَكّن من إجابة واحدة .

جزيرة رودوس – فندق بالاديوم – فاليراكي.

استيقظت لأجد رسالة وُضعَت تحت الباب من إليزابيت تطلب أن نلتقي في فندق بالاديوم القريب جداً، ووضعَتْ لي سهماً يشير إلى الطريق سيراً على الأقدام..

الساعة الثانية ظهراً وصلت الفندق، والتقيت بإليزابيت في صالون الاستقبال فتوجهنا مباشرة إلى المطعم المُطل على البحر.. فقالت: – أعرف شغفك جيداً في مثل هذه الأماكن؛ فهي تُذكّرك بالساحل السوري..

فقلت لها: – صدقت..

الساحل اليوناني يشبه إلى حدٍ ما الساحل السوري، وتحديداً ساحل فاليراكي يكاد يكون توأم ساحل رأس البسيط..

وصل البروفسور فريدريك ومعه امرأة وثلاثة رجال، وبعد التّعارُف تناولنا الطعام مع مشروب أوزو اليوناني الذي يشبه إلى حد ما مشروب العرق السوري ولكن ليس بجودته ولا بمذاقه أبداً..

أشارت لي اليزابيت بحركة أن أعطيها الساعة والموبايل.. أغلقت الموبايل وأعطتهم للمرأة التي غادرت المكان مباشرة..

ثم تابعت اليزابيت كلامها:

ستخرج بعد قليل مع فريدريك لتمارسوا رياضة المشي في الجبل المقابل للفندق ليكمل لك بقية الحديث..

سألتها: وأنت هل ستمارسين رياضة المشي معنا؟؟

قالت: لا يا صديقي.. أنا مشغولة الآن وأعدك بأني سأكون معك مثل ظلك بعد سفر فريدريك..

سألتها: ومتى سيسافر!؟

قالت: عندما ينتهي.. أقصد عندما يُفرغ لك ما في جُعْبته..

ودَّعْتها، وذهبت للفندق لأُبدّل ثيابي.

جزيرة رودوس – الحديقة المائية – فاليراكي.

خرجنا من الفندق أنا والبروفسور، وانطلقنا باتجاه الجبل المُطل على الحديقة المائية.. كان المشهد رائعاً جداً من قمة الجبل وسط غابة من أشجار التين الذي مازال أخضر، والإطلالة على حديقة للألعاب المائية المطلة مباشرة على البحر..

سألته: وماذا بعد الجمهورية الكردية والشيعية العربية وتقسيم العراق والسعودية وسورية ولبنان الكبير؟!

نظر إليّ وهو يلتقط أنفاسه: – يبدو وكأنك لا تصدّقني؟؟

قلت: أُصدّقك؛ ولكن بصراحة أتمنى أن لا أُصدّق الكلام الذي تقوله لي!!

قال وهو يهز برأسه: أفهمك يا صديقي.. وأفهم بأنّ ما تسمعه مؤلم جداً، وأعرف بأنّ المعلومات التي قلتها لك لا يتمنى سماعها أبناء الشرق لأنها تَمسّهم وتمسّ وجودهم وكرامتهم، ولكن المعلومات القادمة هي الأسوأ..

وأمام الدهشة التي ارتسمت على وجهي قال: لا تقلق.. هاقد وصلنا أمام الفندق.. سأدعك ترتاح قليلاً؛ وسنلتقي في بالازور.. إلى اللقاء ياصديقي..

جزيرة رودوس . فندق لويس كولوسيوس بيتش . فاليراكي .

لا أستطيع أن أصف الشعور الذي لازمني منذ أن قال عبارته: ولكن المعلومات القادمة هي الأسوأ.

هذه العبارة التي لجَمتْ حواسي؛ ورسَمَتْ الحزن على وجهي بطريقة مشوّهة؛ جعلتني أكلّم نفسي كمجنون متسائلاً: ما هو الأسوأ !؟

وأعيد كالببغاء: أسوأ .. ما هو الأسوأ ؟..

– هل هناك أسوأ مما نعيشه اليوم !؟

– هل هناك أسوأ من الربيع العبري والذي سُميّ ظلماً وبهتاناً بالربيع العربي؟؟

لا أعرف لماذا تذكرت ما كتبته مجلة سويدية في العام الماضي تحت عنوان – العالم الرابع–

وأعترف بأن العنوان استفزّني وجعلني أتصفّح المجلة باهتمام شديد لأكتشف بأنها تُسلّط الضوء على دول العالم الثالث، الفقيرة المتخلفة نتيجة الصراعات والحروب التي جعلتها تشكل العالم الرابع رغم أن أغلبها يملك كل مقومات القوة إلا أن تخلفها ناتج عن عدم مواكبة التطور العلمي، وعدم القدرة

والرغبة بالخروج من عباءة الذين يتاجرون بالدين ويريدون العودة للعيش في زمن ولّى، لنبقى متخلفين ومختلفين تماماً عن كل العالم..

ولن أستغرب أن يتم تصنيفنا العالم العاشر بعد ثورات الربيع العربي!!

فكل ثورات العالم كانت ربيعاً حقيقياً حققت لشعوبها تطوراً ديمقراطياً وعلمياً وثقافياً وحضارياً، إلّا هذا الذي يسمونه بالربيع العربي فقد حقق تناقضات غريبة جداً لم يعرفها العالم من قبل..

وعدت الى ماكتبته يومها أُعدّد بعض تناقضات الربيع العربي:

- في الربيع العربي: استمتع العالم ساخراً مما شهده البرلمان المصري بعد وصول الرئيس الأخواني مرسي للسلطة، واستغرقت المناقشات عدة أسابيع ليصدر بعدها قانون - جماع الوداع -

قانون يبيح ممارسة النكاح من قبل المسلم لمنكوحته المتوفيه خلال فترة أقصاها ست ساعات بعد وفاتها!

بينما كان الشعب المصري ينتظر إصدار قوانين جديدة لتحسين وضعه الاجتماعي.

- في الربيع العربي: توقفت العمليات الجهادية ضد إسرائيل بفتوى أنها حرام!!

بينما كثرت العمليات الانتحارية وتفخيخ وتفجير السيارات والمباني وأماكن العبادة، وخاصة ضد أخيه العربي بفتوى أنها حلال..

وتحت يافطة براقة - من أجل الإصلاح والحرية والديمقراطية!

- في الربيع العربي: تغيّرت المبادئ والمفاهيم وأصبحنا نقتل المعلمين الذين علمونا ونحرق المدارس والجامعات التي تعلمنا بها؛ ونقتل الأطباء الذين عالجونا؛ ونحرق المشافي التي أُسْعفنا إليها أكثر من مرة؛ ونفجّر سيارات الإسعاف؛ ونخطف ونقتل رجال الدين ونفجر أماكن العبادة ونحولها الى أوكار

للسلاح ومنابر للفتنة والتخطيط للقتل والعنف وزرع الرعب في قلوب الناس بدلاً من زرع المحبة..

– في الربيع العربي: أصبح لشيوخ العرب فتاوى متناقضة!!

تُحرّم التظاهر في بلادهم؛ وتُحلّل التظاهر في دول أخرى حتى لو تسبب بقتل مئات الآلاف.. فلا يهم فهم شهداء عند ربهم يرزقون بسبعين حورية!!.

– في الربيع العربي: أصبحنا نستغرب فعلاً أن يكون العالم العربي يضم أكثر من عشرين دولة عربية من المحيط إلى الخليج ولا يحترمون بعضهم البعض، ويتكلمون لغة عربية واحدة ولكن فيما بينهم لا يتكلمون إلّا بلغة الغدر والرصاص.. وموطن جميع أنبياء المحبة والسلام والحكمة إلّا أنهم لا يعرفون الحكمة ولا يعيشون المحبة والسلام!

– في الربيع العربي: اكتشف المواطن العربي بأنّ البلاد العربية لديها من النفط والغاز والقمح والخضراوات والقطن والمياه ما يكفي العالم كله، ولكن للأسف لا يكفي المواطن العربي!

– في الربيع العربي: استخدم العرب محطات تلفزيونية لتنقل وقائع أفلام القتل مباشرة وحصرياً؛ وأصبحنا نرى كيف العربي يقتل أخاه؛ ويخطف جاره ويسرق ماله ويغتصب عرضه باسم الدين؛ والدين منهم براء!

– في الربيع العربي: بدأنا نستغرب أن يكون في العالم العربي أقدم وأحدث وأكبر وأكثر عدد من بيوت العبادة؛ ورغم ذلك مازال البعض يؤمن بأن قتل من يخالفهم الرأي أو العقيدة سيُدْخلهم الجنة من أوسع أبوابها!

– في الربيع العربي: تأكدنا بأن العالم كله يسير إلى الأمام فقط، إلا العالم العربي لا يتقن إلا السير للوراء!

– في الربيع العربي: اكتشفنا بأن الثورات في أي مكان بالعالم تدفع للمزيد من التقدم الحضاري إلا الثورات العربية تعيدنا دائما للمزيد من التخلف والفقر والجهل والتّعصب الأعمى حتى أصبح القاتل قبل المقتول يقول: ياالله!

- في الربيع العربي: نسينا الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية في الجولان وجنوب لبنان وفلسطين والقدس والجزر السعودية، ونسينا احتلال تركيا للواء اسكندرون، وتذكرت السعودية وقطر فجأة إنه من أجل نشر الوهابية في العالم العربي يجب تغيير تركيبة النظام السياسي في لبنان بحيث يتجرد المسيحي من صلاحياته كما فعلت في اتفاق الطائف ومازالت، والتخلص من الأنظمة الشيعية والكردية في كل من سورية والعراق، وتناسوا أن اليهود والصهيونية هي العدو الأساسي، وأن إسرائيل هي المستفيد الوحيد لأنها هي التي خططت للربيع العربي..

فهل هناك أسوأ من كل هذا ؟؟

مطعم بالازور في رودس القديمة...

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساءً حين وصلت رودس القديمة وقصدت مباشرة مطعم بالازور الذي يتوسط الساحة الشهيرة.. فوجدت إليزابيت في انتظاري .

حضنتي وقبّلتني وكعادتها مدّت يدها تسحب الموبايل من جيبي وبيدها الثانية تشير لي بالصمت وبالدخول...

على شرفة المطعم كان البروفسور فريدريك يجلس مع ثلاث نساء ورجل واحد رحب بي بحرارة وقدم لي زجاجة نبيذ قائلاً:

- هذه الزجاجة اخترتها خصيصاً لك لأنّها تحمل أسمك..

شكرته على هديته ..

تأملت زجاجة النبيذ اليونانية التي تحمل اسمي؛ وسألته إن كان بإمكاني الاحتفاظ بها كهدية للذكرى؟

فابتسم قائلاً: اشربها الآن، وأعدك بأني سأرسل لك صندوقاً من النبيذ الأحمر وآخر من النبيذ الأبيض....

شكرته مرة ثانية؛ والتفت إلى صديقي البروفسور وسألته:

- ما هو الأسوأ الّذي حدثتني عنه!؟

قال: سأقول لك كل ما تريد؛ ولكن دعني أولاً أكمل لك الخريطة المرسومة لإيران.

قلت باستغراب: إيران أيضاً سيطالها التقسيم!؟

قال: طبعاً سيتم اقتسام بعض الأجزاء من إيران لضمّها للدولة الكردية والدولة الشيعية العربية وجزء لدولة أذربيجان، وفي نفس الوقت سيتم اقتطاع جزء من أفغانستان ليتم تشكيل دولة قومية فارسية تكون بديلا عن الجمهورية الإيرانية الإسلامية الحالية .

قلت: يبدو أنّ هذا السيناريو صعب التحقيق..

سألني: لماذا !؟

قلت: لأنك تتحدث عن إيران، إيران وليس أفغانستان ..

قال: أعرف ذلك، والاتحاد السوفييتي أيضاً كان دولة عظمى..

أنا أتحدّث عن المخطط الجديد الذي رُسم للمنطقة؛ ولا أتحدث جازماً إن كان سينجح أم لا، كل ما أعرفه أن هناك مخططات كثيرة وضعت ولها خيار - أ ، وخيار - ب ، وحتى هناك خيارات عديدة جاهزة تكون بديلة في الوقت المناسب.. ولكن الذي نعرفه ومتأكدين منه ما يلي:

سيتم السعي الدؤوب لتحقيق هذا المخطط، واستغلال واستثمار كل الفرص المتاحة، وتوفير كل الدعم من أجل رسم خريطة / شرق أوسط جديد.

سألته: وماذا أيضاً؟؟

قال: سيترافق ذلك مع اقتطاع قسم من أفغانستان لضمه لإيران، ومنح أفغانستان جزءاً أكبر منه من باكستان حيث تواجد القبائل الأفغانية، وجزء آخر من باكستان حيث يقيم الآن البلوش لمنحه لدولة بلوشستان الحرة .

ضحكت ساخراً: لا أعرف لماذا تذكرت الآن الفيلم السوري / الحدود / للفنان دريد لحام حين وجد نفسه ضائع ومحتار بلا جواز سفر على حدود شرقستان وغربستان.. وهاأنت الآن تحدثني عن دولة جديدة أيضاً باسم بلوشستان.

فماذا سيبقى من باكستان؟؟

قال: أتمنى أن أشاهد الفيلم الذي ذكرته، أمّا ماذا سيبقى من حجم دولة باكستان الجديدة هو أقل بقليل من ثلث مساحتها الآن .

تأمّلْتُ إليزابيت وهي تسْكُب لي المزيد من النبيذ وسألتها:

- هل تعتقدين بنجاح هذا السيناريو؟؟

قالت: للأسف نعم.. ولكن أعتقد بأنّ بعض التعديلات ستطرأ على المخطط وقت التنفيذ ..

وحين عدت وسألتها أن توضح أكثر تدخل البروفسور مرة ثانية مبدياً رغبته بالإجابة وقال:

- بما أن رسم خريطة الشرق الأوسط الجديد سيتم على أساس قومي وإثني أو طائفي في أغلب الأماكن، فمن البديهي أن يصطدم بعقبات كثيرة؛ وسيسفك الدم بقسوة؛ وبغزارة شديدة؛ وبأساليب مرعبة جداً؛ ولكن رغبة الأقليات بالانفصال وتشكيل كيان مستقل قابل للحياة سيكون ممكناً، وسيجعلهم يقبلون ويتقبّلون كل شيء من أجل هدف أهم: بناء دولة.

سألته: وأين مصلحة العرّاب الأمريكي من كل ذلك؟؟

قال: كل الخطط الأمريكية المُتعلّقة بالعالم الإسلامي كانت تضع هدفين كثوابت لإستراتيجيتها، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك حين وضعت تحتهما خطاً أحمر دلالة على أمنها القومي، وهما:

- **الأول:** هو حماية أمن دولة إسرائيل مهما كلّف الأمر .

- **الثاني:** هو استمرار تأمين تدفق النفط بشكل طبيعي؛ وبالشروط التي تراها مناسبة لها، والحفاظ على مصالحها الإستراتيجية الأخرى.

وحتى الآن كان كل ذلك مؤمناً لها تماماً من خلال تعاونها مع أوربا في ملفات عديدة مثل سورية ولبنان وفلسطين ومصر وتركيا وإيران وباكستان ودول الخليج، ولم يسجل سوى اختراق واحد فقط في حرب تشرين.

سألته: تقصد حين استطاع الرئيس حافظ الأسد بحنكته السياسية إقناع الملك السعودي فيصل باستخدام النفط كسلاح في حرب تشرين!؟

قال: نعم.. هذه الحادثة شكّلت صدمة ليس لأمريكا فحسب بل لكلّ الغرب، ولكن تمّ تجاوزها بسرعة حين تم الإيعاز للأمير فيصل بن مساعد بن عبد العزيز آل سعود بإطلاق النار على الملك فيصل بينما كان يستقبل وزير النفط الكويتي عبد المطلب الكاظمي في مكتبه بالديوان الملكي وأرداه قتيلاً ..

استغربت دقة معرفته بالحادثة!. فضحك وقال:

- بل أكثر من ذلك يا صديقي فأنا أعرف التاريخ أيضاً، كان ذلك يوم الثلاثاء ٢٥ آذار عام ١٩٧٥. لأنها كانت صدمة كما قلت لك، ولم تتكرر بعد ذلك.

- هذا يعني أن الخليج العربي أصبح في حضن الشيطان؟؟

قال: بل تحت السيطرة؛ ولهذا لن يشمل التغيير الدول الصغيرة مثل: الكويت وعمان وقطر واليمن؛ أما الإمارات العربية المتحدة ستشهد في وقت لاحق بعض التغييرات أيضاً .

قلت: فهمت من حديثك أن الأردن ستكبر مساحته على حساب السعودية، وذلك من أجل إيجاد الوطن البديل للفلسطينيين وإسقاط حق العودة.

وفهمت أيضاً أن اليمن سيكبر على حساب السعودية .

ولكن لم أفهم لماذا اليمن يجب أن يكبر أكثر!!

قال: سأقول لك بكل صراحة مازالت إسرائيل تتحفّظ ، وتتمنّع من تسريب أي معلومة حول الأسباب الحقيقية برغبتها إعطاء قسم من السعودية لليمن في خطة الشرق الأوسط الجديد، ولكن دعني أسألك هل سمعت بمضيق تيران؟

قلت: طبعاً

قال: رائع.. هذا يعني أنك تعرف أن مضيق تيران هو نافذة خليج العقبة التي تريده إسرائيل تحت سيطرتها لأنها المنفذ الوحيد لها على البحر الأحمر.

قلت: يبدو أنك تُلمّح أنّ هذا هو سبب احتلال إسرائيل لجزيرتا صنافير وتيران في حرب ١٩٦٧ بسبب موقعهما الاستراتيجي.

قلت: الغريب أن جزيرتا صنافير وتيران مُغيّبتان تماماً في الإعلام العربي، حتى إن هناك من لايعرف بوجودهما، وهناك من يعتقد بأنهما أرض مصرية محتلة والقليل جداً يعرف بأنهما أراض سعودية..

قاطعني: مُمْكن.. وهذا يعود لعدّة أسباب أهمها:

١- أن مصر كانت قد استعارتهما من آل سعود في محاولة لإغلاق مضيق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية؛ ولكن إسرائيل احتلتهما في حرب ٦٧.

٢- رغبة السعودية بالتعتيم على الموضوع بشكل كامل بعد تفاهم إسرائيلي أمريكي سعودي . ينص على أن تحتفظ إسرائيل بهما لأهميتهما الكبيرة بسبب الموقع الاستراتيجي الذي يسمح لها بالسيطرة على بوابة خليج العقبة وإيلات الإسرائيلية، وحماية دول الخليج.

قلت: يبدو أن وضع هاتين الجزيرتين مثل وضع مزارع شبعا..

السعودية تُخْلي مسؤوليتها وتقول إنهما أراض مصرية؛ وسادات مصر تَبرّأ منهما بعبارته الشهيرة:

لا ياعمْ دول الجُزْر مُشْ لينا، ولا هُمّا بتاعْنا، دول بتاع أرض الحجاز.

ويبدو أنّ إسرائيل يقظة جداً، وتستغل كل ثغرة من أجل وجودها؛ وحماية أمنها.

ثُمّ استدرتُ موجّهاً كلامي إلى إليزابيت:

أعتقدُ أنّ المشهد أصبح واضحاً جداً، والإستراتيجية الصهيونية الأمريكية أوجدت بعض الأعراب والأتراك لتنفيذها تحت مسمى – الربيع العربي /.

هذا الاسم البرّاق جداً من أجل إغراق العالم العربي والإسلامي بالفتنة الطائفية والدم، وإضعافها من خلال نشر الفوضى الخلاقة، وتقسيمها إلى دويلات صغيرة عاجزة ضعيفة؛ تكون تحت السيطرة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، و.. وأنا تعبت.. تعبت..

.. ضربت الطاولة بيدي غاضباً؛ ووقفت قائلاً:

تعبْتُ من كلّ هذا..

تعبْتُ من كلّ هذا الكلام..

تعبْتُ من كلّ هذه الحقائق المؤلمة..

لا أريدُ سماع المزيد من المخططات الدموية والسياسية والاقتصادية..

لا أريدُ سماع مؤامرات الدول والحكومات والخيانات المُرعبة..

أشكرك سيد فريدرك.. أشكرك إليزابيت.. أشكركم جميعاً..

ولكن أريد أن أقول شيئاً قبل رحيلي:

لم يعُد يهمني ماذا سيحدث لهذا العالم !؟

من يبقى.. أو من سيتلاشى!؟

مَنْ يكبر أو من يصْغر!؟

من القاتل ومن المقتول !؟

ليذهب العالم إلى الجحيم فبَعْد وطني لا وطن يستحقُ الحياة..

نعم.. كنتُ أريدُ أن أعرفَ، وليتني لم أعرفْ...

كنتُ أريدُ أن أفهمَ ، وليتني لم أفهمْ..

كنتُ أركضُ وراءَ المعرفة لأفهمَ، لأتعلّمَ، لأرتويَ، لأفيضَ حُزناً حتّى الموت!؟ فاكتشفت بأنّي أزدادُ حزناً كلّما أزددت معرفةً.. هل المعرفةُ حزن!؟

نعم أنا حزينٌ الآن.. حزينٌ حتى العَظْم..

وأشعُر بشوق للياسمين..

للياسمين الدمشقيّ؛ أكثر ممّا تتصوّرون.. شكراً لكم..

وغادرتُ في محاولة إخفاء دموعي التي انهمرت غصباً عني..

اختطاف !

كورنيش مدينة رودوس اليونانية..

كنت أحاولُ أن أَلْجُم غضبي وحزني وأنا هاربٌ من نفسي على كورنيش شاطئ مدينة رودس اليونانية، وثمّة إحساسٌ بأنّ ليلنا قاتلٌ، وكأسنا الذي نشربهُ مسمومٌ، ورغبتنا مجنونةٌ، والموسيقا التي نسمعها صاخبةٌ، والحبّ الذي عشنا حياتنا نحلمُ به مصروعٌ بالهذيان، وشاطئ حياتنا بلا أمان، وسنبقى نتصارع نحن والزمان... ولكن إلى متى!؟...

تباً لحياة لا نلْمسُ من جمالها إلّا همومها..

كنت أمشي مثقلاً، متعباً.. مقهوراً.. تتقاذفني الأفكار مثل زورق صغير يفاجئه الإعصار؛ طاردته الرياح والأمطار..

وفجأة توقفت سيارة فولكسفاكن بيضاء أمامي، وبحركة سريعة تمّ دفعي لداخل السيارة، وتمّ ربط عينيّ وفمي، وغبت عن الوعي..

كان كلُّ شيء مظلماً حين بدأت أستعيد حواسي، وبحركة لاشعورية بدأتُ أتلمّس وجهي وجسدي بخوف شديد، وشكرت ربي إنني بخير..

ثمّة أسئلة كثيرة كانت تتزاحم في رأسي، حاولت أن أتماسك؛ وأُفكر.. فوجدت أن هناك أسئلة بحاجة إلى أجوبة سريعة:

– من الذي خطفني؟!.. ولماذا؟!.. – أين أنا الآن؟!.. – وكم مضى من الوقت وأنا هنا؟!..

من أجل أن أعرف من خطفني كان لابدّ لي أن أستجمع أفكاري؛ وكل ماقد مرّ معي منذ وصولي لجزيرة رودوس كشريط سينمائي، في محاولة جادّة لأتذكّر إنْ كنت قد اشتبهت بأحد ما كان يتعقبني أو يراقبني!! فلم أجد شيئاً يثير الفضول؛ وعدت أتذكر وجوه من التقيتهم خاصة الّذين تبادلتُ الحديث معهم؛ مثل موظفي الاستقبال في الفندق والبار والمطاعم التي زرتها والأشخاص الّذين التقيتهم مع إليزابيت وفريدريك... وما كدت أتذكر إليزابيت حتى مددت يدي أتفقد الساعة والموبايل فلم أجدهما.. شكرت ربي مرة ثانية لأني نسيتهم معها..

وعدت أحدث نفسي: من المستفيد ولماذا؟!.. لا يُعقل أن تكون المخابرات أو الشرطة اليونانية؛ فأنا لم أخالف القوانين اليونانية بشيء؛ وحتى لو كنت خالفت القوانين أو ارتكبت جنحة ما فمن السهل إلقاء القبض عليّ بشكل عادي وعلني، وليسوا بحاجة إلى أسلوب العصابات!! فمن يا ترى؟!

– هل يمكن أن يكون عملاء للموساد الإسرائيلي؟!..

– هل يمكن أن يكون بعض المعارضين السوريين؟!

– هل يمكن أن يكون بعض الإسلاميين المُتشدّدين الّذين كتبتُ ضدّهم في الفترة الأخيرة..؟!

وحين لم أتوصّل لجواب يُقنعني تمنّيتُ فعلاً أن أكون بيد الشرطة أو المخابرات اليونانية؛ أو أيّ جهة رسمية؛ فهذا أفضل ألف مرة من أن أكون قد وقعت فريسةً بيد من لا يعرفون رحمة الله...

وسألتُ نفسي السؤال الثالث: أين أنا؟!.. تحسّست الأرض؛ ونقرت عليها بأصابعي فأدركت أنّ الأرض من الخشب المصقول..

زحفت قليلاً حتى اصطدمت بحائط تحسّسته براحة يدي فوجدته بارداً جداً، نقرت عليه بأصابعي فشعرت وكأنّه كتلة من الحديد أو الألمنيوم الثقيل...

وضعت أذني أسترق السّمع فلم أسمع شيئاً.. جلستُ حزيناً.. هاهي الذكريات العالقة فوق أهدابي؛ المُقيمة أبداً في حنايا ضلوعي؛ المضمومة بشريط الياسمين الأبيض.. تنفلّش أمامي بكلّ ما فيها من أوراقي الملوّنة..

أصدقائي؛ كلّ دفاتري وأشعاري المدوّنة؛ وكلّ الأمسيات الجميلة الحالمة؛ وكلّ تلك الجلسات في صيدنايا - خاصرة الشام الرائعة - كُلّها.. كُلّها تنْبثقُ أمامي لتقول لي: ألم تشتاق إليّ..؟! لماذا ذهبت إلى جزيرة رودوس ولم تأت للموعد كعادتك كل عام..؟!

ها أنا الآن أدفنُ رأسي بين يديَ مقهوراً، كم أحتاج الآن لدفء الّذين أحبهم، يا إلهي.. أحتاج حتى للّذين قسوا عليَ وأتعبوني؛ لأنّ جسدي أثقلتهُ غربة الروح؛ فأكثر ما يؤلمني هو ضياع الصّور الجميلة المتميّزة العالقة بذاكرتي ببديل لا يشبهُني!!

ما لقلبي يستعرُ ويتأجّجُ الآن؛ وكأنّه مخزونٌ هائلٌ من الحنين لشيء هو بمساحة العالم، بهذا الصّمت القاتل؛ بهذه الظُلمة الموحشة؛ وأنا أنتظرُ مصيراً لا أعرف كيف يكون، لا أشتاق لشيء الآن إلّا لرائحة الوطن والأهل والأحبّة..

جئتُ أبحثُ عن الحقيقة؛ ولكنّي وجدتُ أنّ حقيقتي تركتها خلفي؛ في بلدي.. في كل شارع وحارة في مدينتي.. قبل أن أرحل تركتُ آثار أقدامي، وصدى كلماتي، وما كتبته دمعةً باردةً حفَرتْ دربها في كلماتي.. فهل من يذكرها؟!.. يا إلهي.. لماذا تهجمُ عليّ كلّ هذه الذكريات الآن؟؟..

عدتُ أتحسّس الأرض وخطر لي فجأة خاطراً أرعبني.. قد يكون هناك من يراقبني الآن؛ ويراقب تصرفاتي.. استدرتُ بوجهي باتجاه الحائط؛ وثمّة سؤال واحد كان يُقلقني:

- هل سأخرج من هنا حياً أم ميتاً؟!!..

وحين لم أجد جواباً استسلمت لسلطان النوم..

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا مُمدّدٌ هنا، ولكن حين بدأت أستيقظ كانت الصورة ضبابية تماماً، والأفكار عادت تلحّ عليّ إلحاحاً وكأنّها تخاطب القلب والعقل، ثم ما لبثت أن تحوّلت إلى علامات استفهام كبيرة تُصارع القلب والعقل، ونظراتي تجول في هذا المكان الضيّق، المُظلم، فلا أرى إلا من أُحبّهُم يتربّعون مابين عقربيّ القلب والعقل..

- ترى هل عرفت إليزابيت ما حصل معي!؟

- هل سيأتي من يُخلّصني ويخرجني من هنا!؟ أم ..

وفجأة سطع شعاع من نور غمرني، وسمعت صوتاً يقول بلغة إنكليزية:

- أتمنى أن تكون نمت جيداً في ضيافتنا..

التفتُ حولي فلم أجد أحداً، ولم أرَ شيئاً، ولكن رأيتُ نفسي من خلال حزمة الضوء التي غمرتني بحيث يُسْمح للآخر برؤيتي..

وضعتُ يدي على عينيّ في محاولة لتجنُّب قوة الضوء، وقلت ساخراً بلغتي العربية:

- ضيافتكم !!

ضحك بصوت عالٍ؛ وقال بلغة عربية: يبدو أنّك تريد التّحدث باللغة العربية.. ليكُنْ.. سأتحدثُ معك باللغة التي تفهمها؛ وأريد أن أعتذر عن الطريقة التي اتبعناها للمجيء بك إلى هنا..

قلت: ومن أنتم!؟

قال: لا يهُم أن تعرف الآن من نحن، ولكنّي أعدُك بأنك ستعرف قبل أن تخرجَ من هنا..

وشعرت ببارقة أمل حين قال قبلَ أن تخرُجَ من هنا، فهذا يعني بأنّي في النهاية سأخرج حياً... فعدت أسأل مصدر الصوت:

- ولماذا أنا هنا!؟

ضحك مرة ثانية، فتردّد صدى ضحكته في أرجاء الغرفة الضيّقة، وقال:

- أنت تعرف لماذا أنت هنا الآن!؟

- لا أبداً .. لا أعرف ..

قال بنبرة حازمة: اسمعني جيداً.. لن ترى باب الخروج من هذه الغرفة إلّا إذا اتفقنا أنا وأنت..

- أنا لا أعرفك؛ ولا أعرف من أنتم؛ فكيف تريدني أن أتفقَ مع من خطفني وجاء بي إلى مكان فلا أعرف أين أنا!؟

عاد الصوت أكثر حزماً: اسمعني جيداً؛ أعرف أنك إنسان لا ينقصك الذكاء، وأعرف عنك أكثر مما تعتقد .. بل أكثر ممّا تعرف عن نفسك، وأعرف مسيرة حياتك بتفاصيلها الدقيقة، ولكن في الصورة التي أعرفها عنك هناك جوانب رمادية غير واضحة لذلك لديّ بعض الأسئلة بحاجة إلى أجوبتك لتوضح الصورة بشكل أفضل، وبعدها سترى باب الخروج من هذه الغرفة..

قلت: وإنْ رفضْتُ التّعاونَ معك؛ ورفضتُ الإجابةَ عن الأسئلة !؟

عاد يضحكُ من جديد قائلاً: ليس أمامك خيار آخر؛ إن أردت الخروج فعلاً من هنا؛ عليك التّعاون معنا؛ وبصدق..

وضحكت طويلاً، وبصوت عال تعمّدتُ أن يسمعه..

سألني باستغراب:

– ما الذي يُضْحكك بهذا الشكل.. هل رويتُ لك نكته وأنا لا أعلم!؟

قلت: طبعاً.. وهل هناك نكتة أكبر من قولك: بصدق!!

وأردفت كلامي: أنت تفرض عليّ شروطك، ولا تترك لي أيّ خيار.. ثم تطلب أن أكون صادقاً.. فهل بعد كل هذا تتوقع أن أكون صادقاً..

قال: نعم.. وأنا متأكد بأنك ستكون صادقاً.. هل تعرف لماذا !؟

وقبل أن أسأله لماذا؟.. قال: سأكون معك صادقاً وأصارحك بشيء هام: لقد زرعنا في جسدك شريحة صغيرة جداً وهي موصولة بجهاز لكشف الكذب..

صمَتَ قليلاً؛ ثم عاد يقول: لهذا كنت صادقاً بكلامي حين قلت لك ليس أمامك خيار آخر غير الصدق حتى ترى باب الخروج من هذه الغرفة...

وصمَتُّ أنا، في البدء تملّكني الارتباك والرهبة، ولكن بعد ذلك شعرت ببعض الطمأنينة لأنني بين أيدي محترفين؛ وليس تحت رحمة عصابات قتلة..

وكان لابدّ لي من العودة لسنوات عملي كباحث اجتماعي في إدارة السجون، والاستفادة من خبرتي والأساليب الفلسفية والنفسية الناجحة التي تعلمتها..

عاد الصوت يُمزّق هدوء تفكيري ويستفزّني نفسياً:

– أعتقد بأنك فوجئت بكلامي؛ وأنك تفكر الآن بالرّفض لتبقى هنا؛ وسيُشكّل غيابك مادة دسمة للصحافة والإعلام ليكتبوا عن اختفائك؛ وتنتشر صورك على صفحات التواصل الاجتماعي مع بوستات رنّانة تشيد بإنجازات الكاتب والناشط الذي اختفى في ظروف غامضة ووو الخ.. وأنصحك بهذا لأنهم بعد ذلك سيجدون جثتك.. وهكذا تصبح بطلاً لفترة قصيرة ثم تصبح على حافة النسيان مثل كل شهداء هذا الزمان.. ما رأيك بهذا السيناريو!؟

وأدركت بأنّه لا يريدني أن أختار هذا السيناريو؛ وإنما يحاول استفزازي لأتعاون إيجابياً.. وأردت أن أقدّم له هديةً ليشعر بأنّ أسلوبه نجح في السيطرة عليَ.. فقلت له:

- لا بالعكس تماماً..أنا أحب الحياة، ومُغرم بثقافة إنسانية الإنسان بكل ما فيها من حب وفرح وتسامح، ولست من أنصار ثقافة الحقد والخطف والقتل..

وليس لديّ رغبة بالموت هنا؛ بل لدي أمل ورغبة قوية للعودة إلى دمشق ورؤيتها من جديد.

سألني: متى!؟

قلت: سأقول لك ما كنت أقوله دائماً: عندما أشعر بأن أوكسجين إنسانيتي بدأ ينفذ من روحي؛ أسرع لدمشق الياسمين.. لأذوب فيها حباً وعشقاً وكرامة.. ففيها أحافظ على إنسانيتي التي أحبها وأفتخر بها؛ ولا أريد أن أخسرها في غربتي.. وخاصة الآن وأنا في هذه الظروف

عاد يسألني: ومن لك في دمشق!؟

ضحكت وقلت:

لي في دمشق ذكرياتي..

فرحي وآهاتي..

روحي وأصدقائي..

حضارة الماضي والحاضر والمستقبل الآتي..

لي في دمشق .. عشق ..

لي في دمشق .. دمشق ..

فأنا دمشقي الهوى من جبل قاسيون وحتى الفرات..

قال: معلوماتي تقول إنك لست من مواليد دمشق..

قلت مصححاً: عندما أقول دمشق فأنا أقصد سورية، كل سورية ..

قال مستوضحاً: يبدو أنك حزمت أمرك؛ واتخذت قرارك برفض التعاون معنا؛ لتكون شهيد دمشق ..

ضحكت؛ وقلت:

- ليس ذنبي إنك لم تفهم كلامي.. لذلك سأوضح لك

- **أولاً:** لا أريد لأحد أن يموت من أجل دمشق، وأنا لا أريد أن أموت من أجل دمشق، بل أريد أن أعيش لأجل أن تعيش دمشق.

- **وثانياً:** أريد أن تلغي كلمة - تعاون - لأنني فعلاً لن أتعاون معكم فأنا لا أعرفكم!! بل سأكتفي بالإجابة مرغماً على أسئلتك أيها المحقق لأحصل على براءتي.

صرخ بصوت جهوري وكأنه حقق نصراً كبيراً:

- اتفقنا...

ثم صفّق بيديه فعمّ النور كلّ أرجاء الغرفة؛ ودخلت صبية حسناء تحمل الطعام والشراب؛ فقال:

- سأدعك الآن تتناول الطعام والشراب؛ وتتعرف على مكان إقامتك، ولا تنسى أنْ تسألَ الصَبيّة لتدلّكَ على مكان الحَمّام والمرحاض؛ وترتاح قليلاً، وسنلتقي بعد قليل وجهاً لوجه في غرفتك.

جئت أبحث عن الحقيقة؛ ولكنّي وجدْتُ أنّ حقيقتي تركتها خلفي؛ في بلدي.. في كل شارع وحارة في مدينتي.. قبلَ أنْ أرحلَ تركْتُ آثارَ أقدامي، وصدى كلماتي، وما كتبته دمعةً باردةً حَفرَتْ دربها في كلماتي... فهل مَنْ يَذْكرها!؟..

يا إلهي.. لماذا تهجمُ عليَّ كل هذه الذكريات الآن؟..

ماذا سأفعل وليس أمامي إلّا خيارين لا ثالث لهما!؟..

ويجب أن أختار، والخيارين أحلاهما مُرّاً.. أنا أو الوطن!

والأصعب أنّ الاختبار حقيقي غير مسموح للغلط، للكذب، للمراوغة..

والآن لابدّ من الاختيار... وكيف أختار!؟..

ووطن اسمه سورية حملته معي منذ أن رأيت نور الحياة، حتى أصبحْتُ أنا سورية، وسورية أنا.

جلَسْتُ أتناول بعض الطعام وأُحدّق بالغرفة الخشبية، ولا أعرف لماذا تذكّرْتُ حديثاً سابقاً دار بيني وبين صديقة..

سألتني وهي تَهمُّ بالمغادرة :

- أيهما أقرب إليك الحبيبة أم الوطن!؟

قلت وأنا أوصلها للباب: لا تُخيّري أبداً رجلاً بينك وبين وطنه، لأنّه سيختارُ الوطن.

قالت: ولكن هناك من باع الوطن بأبْخَس الأثمان...

قلت: أنا قلت لا تُخيّري رجلاً ولَمْ أقُلْ أشباه رجال.

عندما تذكرت هذا الكلام الذي كتبته فيما بعد في مقالة كلام في الحب.. شعرْتُ ببعض الارتياح والثقة، وأدركتُ أنّي الآن في تجربةٍ حقيقةٍ لأُثبتَ مَنْ أنا..!؟ رجلاً أو من أشباه الرجال .

وما كدْتُ أنهي طعامي حتى فُتحَ الباب، ودخل ثلاثة رجال وامرأة ترتدي ملابس رياضية وبيدها مُصنَّف؛ تأمّلتني بُرْهة ثمّ قالت:

- اسمح لي أن أُقدمَ لك نفسي.. أنا فيكتوريا وينادونني فيفي، وهذا الكسندر وأبراهام وماركوس.. سنجلسُ معك بعض الوقت ونطرح عليك بعض الأسئلة وقبل أن نبدأ بطرح الأسئلة أودّ أن أخبرك ثلاثة أشياء:

أولاً: يحقُ لك عدم الإجابة على أيّ سؤال تراه غير مناسب.

ثانياً: في الغرفة الثانية هناك مجموعة من الاختصاصيين يتابعون ويسجلون كل الكلام.

ثالثاً : وهو الأهم.. تذكّر ليس أمامك إلّا خيار واحد فقط، أن تكون أجوبتك صادقة وإلّا..

قاطعتها قائلاً: وإلّا لن أخرجَ من هنا.. أعرف هذا ولكن قبل كل هذا هل لي بسؤال واحد فقط!؟..

قالت: نحن هنا لدينا أسئلة فقط، وليس لدينا أجوبة..

ضحكتُ وقلتُ لها: لدَيّ فضول أن أعرفَ مَنْ أنتم...

قالت بجديّة: أتمنى أن لا تندم حين تعرف ذلك يا عزيزي.. وسألتني: ماذا جئْتَ تفعل هنا!؟..

قلت لها: ببساطة سمعت الكثير عن جزيرة رودوس فقررت المجيء سائحاً.

سألت: ولماذا الآن وليس من قبل!؟

قلت: ببساطة أيضاً لم تَحنْ الفرصة سابقاً.

سألت: ما هي علاقتك مع إليزابيت!؟

قلت: علاقة عمل وصداقة مع عائلتها.

سألت : والبرفسور فريدريك!؟

قلت: لا أعرفه.. التقيته هنا برفقة إليزابيت.

سألني ماركوس: هل هو صديق مُقرّب من إليزابيت؟..

قلت: لا أعرف إن كان صديقها المُقرّب؛ ولكنّها قدّمتهُ لي بعبارة صديقي البروفسور فريديك.

عادت فيفي تسألني: لماذا قدّمته لك!؟..

قلت: لأنّه كان برفقتها.

سألت: وما علاقتك بالبروفسور توماس المُقيم في السويد!؟

قلت : علاقة صداقة عمل وجيران ولدينا بحوث مشتركة.

سألني البدين أبراهام: ما نوع البحوث!؟

قلت: علاقة الغرب بالشرق، وصدام الحضارات والأديان، وعلاقة المهاجرين في العالم الجديد، وغيرها من القضايا المصيرية الإنسانية.

قالت فيفي: لنعود لعلاقتك مع إليزابيت.. نحنُ نعرفُ أنك جَنّدتَها لتكونَ ناشطة باللوبي العربي بالسويد لذلك أقنعتها بدراسة اللغة العربية ثُمّ أرسلتها إلى أفغانستان والعراق وغزّة وسورية حيثُ تلقّتْ دراستها بتوجيهاتك ومساعدتك بتأمين لها أصدقاء طيلةَ فترة إقامتها في دمشق قبل حصولها على عمل بالسّفارة السويدية في القاهرة ثُمّ طَردَتْها السلطات المصريّة لمحاولاتها الدائمة بالذهاب لمَعْبر رفَحْ والتقاط صور ومساعدة الفلسطينيين.. سؤالي هو: هل هذا صحيح!؟..

قلت: يبدو أنكم تعرفون كلّ شيء، ولم يبقَ إلّا أنْ تذكروا أسماء الأصدقاء الّذين كلّفتهُمْ بمساعدتها بدمشق وعنوان إقامتها..

نعم ياسيدتي كل ذلك صحيح إلّا شيئاً واحداً فقط، وهو الأهم: أنا لم أُجنّدها لتكونَ ناشطة بل أنا نصحتها أن تُكملَ دراستها، وقدّمتُ لها العون ونجحت.. أمّا مافَعَلتْهُ كان من اختيارها هي، وبرغبتها، وفي أغلب الأحيان كانت مواقفها مفاجئة بالنسبة لي.

سألتني: ماهو دورك في مشاركة إليزابيت في قافلة الحرية!؟

قلت: لم يكن لي أيّ دور.. بل فوجئت حين أخبرني والدها باتصال هاتفي بخبر مشاركتها وإصابتها واحتجازها من قبَل الجيش الإسرائيلي...

سألتني مؤكدة: ولكن إليزابيت عضوه وناشطة في جمعية أصدقاء سورية!؟

قلت: هذا صحيح؛ وأنا لا أنكر ذلك.

سألتني: وهل تنكر أنك مؤسّس والمسؤول الأول في جمعية أصدقاء سورية!؟

قلت: لا أبداً.. لا أنكر.. بل أتشرّف وأفتخر بذلك.. ولكن مشاركتها في قافلة الحرية أو أيّ نشاط آخر لا يعني بالضرورة أنّها تُمثّل الجمعية.

سألتني: هل كنْتَ ستوافقها لو كانت سألتك النصيحة !؟

قلت: طبعاً، وبدون أيّ ترَدُد؛ وكنْتُ سأتمنّى لو أستطيع الانضمام لهم.

سألتني: هل قدّمْتَ لها الدّعم من أجل إقامة مَعْرض لصور اعتداءات إسرائيل على غزّة !؟

قلت: لا.. وللأسف الشديد لم يكن لي أيّ دور أيضاً، لأنّ المعرض أقامَهُ والدها...

سألني البدين أبراهام: ولكنّك كنت موجوداً بالمَعْرض حين طردَتْ إليزابيت السفير الإسرائيلي من المعرض!؟

قلت: كنتُ مثْلَ غيري أشاهدُ الصورَ حين دخل رجل برفقة بعض الرجال، وبدأ بتمزيق الصّور فتدخَل رجال الأمن؛ فصرَّح عن نفسه بأنّه السفير الإسرائيلي في استوكهولم.. فاقتربت إليزابيت منه، وطلبَتْ منه الخروج من القاعة لأنه شخص غير مرغوب به.

سألني: هل التقيت بالسفير الإسرائيلي وجهاً لوجه !؟

قلت: لا.. ولا يُشرّفني

سألني: هل كنْتَ سعيداً بتصرُّفها !؟

ضحكت قائلاً : طبعاً..

قال: لماذا!!

قلتُ له مستغرباً: لماذا!؟ أتسألني أنا لماذا!؟

اسمع سأقولُ لك بصراحة، ولا يهمني إن كنْتُ سأخرج من هنا أم لا.. ولا يهمني إن كنْتَ أنتَ يهودياً أو إسرائيلياً.. سأقول لك: إسرائيل دولة مارقة وتتصرّف وكأنّها فوق القانون الدّولي، تقتل وتُهجّر وتهدم وتتسفوتبني جدار الفصل العنصري في الوقت العالم يهدم جدار الفصل في ألمانيا وغيرها..

والد إليزابيت شعر بتأنيب الضمير والأسف حين كان يتابع أخبار ابنته، وجمَع كلّ الصور التي كانت ترسلها له وأقام معرضاً ليرى العالم ما تفعله دولة إسرائيل من أجل أنْ يُقارنَ مابين الألماني النّازي سابقاً ومابين الإسرائيلي اليوم، وبين الفلسطيني اليوم واليهودي أيام هتلر النازي.. مُتسائلاً: كيف يمكن أن تقنعونا إنكم تعرّضْتُم للإبادة والظلم، وها أنتم اليوم تمارسون أبشعَ منه ضدّ الفلسطينيين.

ويبدو أنّ السفير الإسرائيلي لم يستطعْ تَحمُّل صورَ مجازر الأطفال التي ارتكبها جنود الاحتلال فجنّ جنونه وراح يُمزّق الصّور دون أيّ احترام للمكان والحضور فشيء طبيعي أنْ تَطرُدَه إليزابيت، وشيء طبيعي أيضاً أنْ يُسْعدني طَرْده وطرد كل مُتَجبّر وقاتل..

عاد يسألني: ودورك في مسيرة مدينة بورس!؟

قلت: لا أنكر أنني نَسقتُ معها لأجل أن تكون أكبرَ مسيرة تشهدها مدينة بورس للتنديد بجرائم إسرائيل، وأروع مشهد رأيته في حياتي هو مشهد الجموع المُشاركة وهم يرتدون الشماخ الفلسطيني.

ويقاطعني: وعلاقتك بكشف عملية تزوير البرتقال الإسرائيلي !؟

قلت: ولن أنكر أيضاً.. نعم ساهمنا بكشف عملية تزوير البرتقال الإسرائيلي حين كتبوا على صناديق البرتقال الإسرائيلية صُنعَ في أسبانيا؛ ولأنّه مُخالف للقوانين تمّ إتلاف كل البرتقال الإسرائيلي، وأُخبركَ أكثر استطعنا أن نجمعَ تواقيع كثيرة ونحصل على أجر باصات النقل الداخلي لمدة يوم كامل دعماً لأهل غزّة.

عاد يسألني بخُبث: هل تكره اليهود!؟

قلت: طبعاً لا... أنا لا أكره اليهود ولا اليهودية بل أكره الصهيونية لأعمالها اللا إنسانية واللاأخلاقية.. وحتى اليهود الحقيقيون يتنكّرون لأعمال الصهيونية ويخجلون منها، ويعتبرون اليهودية ديانة فقط، ولا يعترفون بقيام كيان أو دولة لهم.

رأيتهم ينظرون لبعضهم البعض.. وكأنّهم يتبادلون إشارات خاصة لا أعرفها، وشعرْتُ وكأنّي تورطت بالحديث، وقبل أن يتسرب القلق لنفسي، قلت:

- يهمني أن تعرفوا جيداً.. أنا إنسان عشتُ نصفَ حياتي في سورية والنصف الآخر في السويد.. وتعوّدت أنْ أفعلَ ما يُرْضي ضميري الإنساني والأخلاقي ، ولا أخجل من أيّ تصرف قمت به، ولست نادماً، بل فخور بكلّ شيء أنجزته وفعلته في حياتي ..

فجأة سألتني فيفي: ما هي علاقتك بالهاربون !؟

قلت لها: للأسف الشّديد كَثُرَ الهاربون من البلاد العربية، بسبب ما سُميّ زوراً بثورات الربيع العربي...

قاطعتني: سؤالي مُحدّد يا سيدي.. أنا أسألك عن تنظيم الهاربون!؟ هل لك أيّ علاقة بهم!؟

قلت بحزم: لا .. لا علاقة لي بأيّ تنظيم أو حزب سياسي.

عاد ماركوس يسألني: لماذا ذهبت إذاً إلى تركيا العام الماضي؟!

قلت: حتى ألتقي الهاربون من سورية ..

قال: لماذا؟

قلت: أهل بلدي.. ومن واجبي كمواطن سوري وكصحفي وكاتب وباحث اجتماعي أن أرى وأفهم وأسمع منهم شخصياً حقيقة ما دفعهم للهروب.

قال: وماذا رأيت؟

قلت: رأيتُ الحقيقة عارية حتى من ورق التوت، وكانت قبيحة جداً، ومُحزنة لدرجة الغثيان، لم أصدق الذُّل الذي يتعرض له السوري في المُخيّمات التركية وهم بحماية مسلحين كانوا قد هتفوا للثورة، ورفعوا شعار: الشعب السوري ما بينذَل؛ فوجدتهم يَذلّون أبناء بلدهم ويجبرونهم على أعمال لا إنسانية...

سألتني فيفي: ماذا تقصد بأعمال غير إنسانية !؟

قلت: حين يتم شَحْن الرّجال والنّساء في سيارات وتوزيعهم على الفنادق التركية ليعملوا أعمالاً شاقّة لأكثر من عشر ساعات يومياً في المطابخ والتنظيف في ظروف قاسية ولا يحصلون إلا على الفتات بينما الأجر الأكبر يحصل عليه المُسلّحون بحُجّة دعم الثورة !؟ فذلك استغلال غير إنساني.. حين تعود بهم السيارات للمخيم مع غروب الشمس لتأخذ البنات والصبايا والنساء الجميلات بقوّة لتوزعهم على الفنادق وأماكن الدعارة ولزبائن خاصة في فنادق الخمس نجوم ولا يحصلون إلا على جزء يسير من مدخولهم؛ وأيضاً الأجر الأكبر يحصل عليه المُسلّحون بحُجّة دعم الثورة !؟ فذلك استغلال غير أخلاقي وغير إنساني..

سألتني: هل كان المسلحون سوريين فقط!؟

قلت: طبعاً لا.. وهنا العجب.. أنا شخصياً رأيت شباباً من تونس وليبيا والشيشان وأتراك ولكن قيل لي أنّ هناك خليط كبير من المغرب ومصر

والسعودية والكويت وهناك رجل لبناني مهم يأتي دائماً ويملأ سيارته بعدة فتيات قاصرات يغيب عدة أيام ثم يعود بهنّ ليأخذ غيرهن..

سألتني: هل التقطت لهم صوراً!؟

قلت: نعم.. التقطت صوراً للسوريين في الخيام، ولمحتويات الخيام، وصوراً للمسلحين عن بعد، ولكل الّذين أجرينا معهم مقابلات..

قاطعتني: ألهذا تمّ طردك من تركيا؟

قلت مُصحّحاً: أنا لم أستلم قرار طرد من تركيا، ولكن بعدما كُشفَ أمرنا من قبل المسلحين، ورؤيتهم لنا ونحن نصوّر ونُجْري التحقيقات هجموا علينا وتعرّضنا للضرب وتكسير الكاميرات والموبيلات، وتمّ سرقة كل ما نملك، ولولا تدَخُل طبيب من لواء اسكندرون لما استطعنا الوصول إلى المشفى للعلاج، وبعدها مباشرة غادرنا تركيا بمساعدة من السفارة السويدية.

سألت: لماذا من السفارة السويدية؟؟

قلت: نحن فقدنا جوازات السفر، وكل ما نملك، وشيء طبيعي أن تساعدنا السفارة، وتؤمن لنا الوسيلة المناسبة للعودة إلى السويد.

سألتني مرة ثانية: ماذا تقصد بقولك – نحن!؟

قلت: أنا وصديقي السويدي استيفان الذي أقنعته بمرافقتي ليكون شاهداً!؟

سألني أبراهام: هل عرض عليك الانضمام للمعارضة !؟

قلت: نعم.. وأكثر من مرة؛ ومن عدة جهات، ورفضت.

سألني: هل كانت هناك إغراءات مادية أو ... !؟

قاطعته : نعم مادية ومعنوية ورفضتها، خاصة في بداية الحرب على سورية، وخلال زيارتي لسورية في نيسان ٢٠١١ ، شرحت كل ما تعرّضْتُ له في مقابلة مع موقع شام برس؛ وفي عدة محطات تلفزيونية سورية وأوربية وأمريكا اللاتينية.

سألني: ألهذا تعرضت للاغتيال!؟

قلت: أنا تعرّضت مرتين لمحاولة قتل، ولكن لسْتُ متأكداً إن كان بسبب رفضي أو لسبب آخر مُتّصل بمواقفي ونشاطي وكتاباتي.

سألتني فيفي: رفضك نابع عن مبدأ أم لسبب آخر!؟

قلت: قلت لك لا أفعل شيئاً إلا إذا كنت مقتنعاً به، ومؤمناً به.. فأنا أولاً وأخيراً إنسان سوري منذ فجر التاريخ. نحن في سورية تعلّمنا أن ننتمي إلى سورية قبل أن ننتمي للكنيسة أو للجامع. نحن في سورية ننتمي لسورية قبل أن ننتمي لحزب أو تنظيم أو شخص ما، إلا إذا كان هذا الشخص على حق، ووضع كرامة سورية نصْبَ عينيه، وفوق كلّ اعتبار، كلنا نقف معه ونفديه بأرواحنا لأننا نعرف بأنّه سيفدي سورية لتبقى مهد الحضارة الإنسانية.

عادت تسألني: هل هذا اعتراف بأنّك لا تنتمي إلى حزب البعث، أو الجيش السوري؟؟؟

قلت: هذا شرف لا أدّعيه سيدتي.. لم يحصل لي شرف الانضمام لأيّ حزب لا في سورية ولا في السويد، ولن أنضم أبداً، وسأبقى حراً مستقلاً، وكلمتي حرّة غير رهينة لأحد، ولا ضدّ أحد إلا إذا كان ضد سورية، وعلاقتي بالجيش السوري كانت خلال فترة خدمة العلم فقط؛ وكانت أجمل أيام حياتي، ولا يربطني الآن أي تعاون سياسي أو أمني مع أي جهة في سورية.

سألني ماركوس: ألا تحصل من سورية على دعم مادي يغطي تكاليف نشاطك الوطني؟

أشرت برأسي: لا... ولا أنتظر شيئاً مقابل ما أفعله، ولا أعرف إذا كان لديهم علم بذلك

سأل: ولماذا تفعل كل هذا!؟

نظرْتُ إليه، وقلت: باختصار يا عزيزي لأنني سوري.. وهذا واجبي، ودَيْن في رقبتي اتجاه وطن ولدْتُ فيه مجاناً؛ وكبرت وتعلمت فيه مجاناً؛ وقدّمني للعالم حفيداً لحضارة وتاريخ عريق لأمة تمتد جذورها آلاف السنين.

عاد يسألني: هل تفعل كل هذا لتعزيز طموحك السياسي؟

ضحكت.. وقلت: أنا لم أكُن يوماً موظفاً، ولا أريد أن أكون موظفاً، وليس لديّ طموح أن أكون وزيراً أو سفيراً.

سألني معقّباً على كلامي: حتى وإن عُرضَ عليك تقديراً لجهودك ومواقفك!؟

قلت: سأعتذر بلباقة.

سألتني فيفي: إذاً مَنْ يموّل كل نشاطك؟

قلت لها: أنا؛ ولم أقبل بأي دعم أو أي منحة من أي جهة مهما كانت؛ وأتحدّى أن يوجد لدى أي جهة حكومية أو سياسية أو حزبية أو دينية أيّ إيصال أو عقد يثبت عكس ذلك...

نظرت فيفي في وجهي، ثمّ هزّت القلم الذي بيدها وقالت: . هناك سؤال لابدّ منه..

فقاطعتها قائلاً: قبل أن تسألي، أريد أن أعرف متى سننتهي!؟

أشارت لمكرفون في أذنها وقالت: ليس لديّ أجوبة بل أسئلة..

قلت بضجر: تعبت وبحاجة لقليل من الراحة والطعام والشراب فهل هذا ممكن!؟

ابتسمت بخبث وقالت وهي تهمّ بالمغادرة مع أصدقائها: – طبعاً ممكن.. ستحصل على كل ما تريد، وسندعك ترتاح قليلاً، وسنعود لنكمل.

قلت لها: وأنا بالانتظار؛ ولا تنسي مشروبي المُفضّل الأوزو اليوناني..

وجلسْتُ أستعيد في رأسي كل التحقيق والأسئلة والأجوبة.. وأفكر بكلام فيفي الأخير: – ترى ما هو السؤال الذي لابدّ منه!؟

ثمّة أفكار بدأتْ تراودني لأول مرة؛ وتلحُّ عليَّ إلحاحاً، وكأنّها تُخاطب القلب والعقل.. ثمّ ما تلبث أن تتحول إلى علامات استفهام كبيرة؛ وأنا هنا.. هنا لا أعرف مكاني، ولكنّي أعرف أنَّ ما يخطر ببالي الآن يصارعُ القلب والعقل، ونظراتي تَجول في هذه الغرفة الضّيقة فلا أتمنى شيئاً سوى أنْ يُكْتَبَ لي النجاة لأرى شريكة حياتي وأولادي...

وتتدفّق الأسئلة في رأسي:

– تُرى هل أعطيتُ شريكةَ حياتي ما تستحقه من اهتمام، وهي الّتي قاسمتني الحياة بمرّها وفرحها!؟

– تُرى هل أعطيت أولادي الّذين جئتُ بهم لهذه الدنيا ما يستحقونه من رعاية وحُب واهتمام!؟

– تُرى هل كنْتُ إبناً بارّاً مع أمي وأبي !؟.. وهل كنْتُ أخاً كريماً وطيّباً وحنوناً مع أخوتي!؟ أو كنْتُ صديقاً وفيّاً مع أصدقائي!؟

– تُرى ألم يكن من الممكن أن أكون أفضل مما كنت!؟ وأن أستمتع معهم أكثر!؟

– لماذا هذه الأسئلة وحدها، هي التي تأتي من القلب لتُعذّبني وأنا في هذا الظرف السيىء حيث لا أعرف مصيري!؟

– لماذا أشعر بلهفة محبة طاغيّة لأحبتي، وحاجتي لأنْ أراهم وأغمرهم بشوق وأعوضهم أكثر وأكثر..

– لماذا لم أفكر بكل هذا من قبل؟؟ لماذا تهجم عليّ الآن، وتحاصرني دفعةً واحدة !؟

– لماذا أعرف الآن فقط محبتهم، ومقدار أهميّتي ووجودي بالنسبة لهم!؟

أم أنها كانت كذلك، وأنا الذي لم يكن لديّ الوقت لأرى ما أراه الآن!؟

– لماذا أفكر الآن بهم، وأشتاقهم!؟

وأنا الذي قضيت حياتي أفكر وأسعى لأشياء أخرى لا تخطر ببالي الآن..

– لماذا لا أهتم الآن بالشهادات وجوائز التكريم التي حصلت عليها في حياتي والتي فرحت بها كثيراً !؟

– لماذا لا أهتم الآن بحجم الثروة التي قضيت عمري أعمل ليل نهار من أجل أن أجمع أكبر قدر ممكن منها!؟ وماذا تفيدني الآن!؟ لاشيء ....

– لماذا لا أفكر الآن بمخاصمة فلان أو معاداة فلان من الناس!؟

– لماذا لا أفكر الآن إلا أن أكون إنساناً!؟

– لماذا لا أفكر إلا بالأوقات الحلوة التي كان يمكن أن أعيشها مع أحبتي، ولم أفعل كما يجب!؟

– هل هو الندم!؟ أم الخوف من أن لا أراهم ثانية!؟

وتساءلت: ترى هل فات الأوان لأبدأ من جديد بحب الذين نحبهم، ونجعلهم يشعرون بما نشعر من حب اتجاههم!؟

أغمضْتُ عينيّ، وخاطبْتُ الله: كنت دائماً معي، ولم تتخلَ عنّي في أحلك الظروف، وأعرف إنك تُحبّني أكثر مما أحبك؛ ولكن أعدكَ أن يكون لحياتي قيمة ومعنى أكثر إن قُدّر لي الخروج من هذا المأزق والعودة إلى عائلتي..

وشعرت بشيءٍ من الأنانية والخُبث، وأنا أقايضُ كالسمسار؛ فبكيت من دون دموع..

عدْتُ أخاطب الخالق: اعذرني.. ولكنّك تعرفني جيداً، وتعرف أنني لسْتُ إنساناً سيئاً، وتعرف حقيقةَ مافي قلبي.. وأعرف بأنّك ستمنحني مُتّسعاً من الوقت إن لم يكن من أجلي، فمن أجل من يحبك أكثر مني، ويستحق أن أكون معه؛ لأنّ الحياة كريمة لذوي النزاهة والوداعة والعقل، ولذوي التفاؤل والتريّث والأمل.. وهاأنذا

ياربي أوجّهُ دعوة محبة صادقة للتسامح مع كلّ الذين تاهوا عن طريق الحق؛ ظلموني أو ظلمتهم؛ أن يعيدوا حساباتهم كما فعلت أنا الآن....

ويعلموا بأننا في هذه الحياة الفانية مجرد ضيوف كُتبَ علينا المحبة والتسامح.. لنتصالح مع أنفسنا أولاً ثمّ نتوجّه لأحبتنا وأهلنا وجيراننا بكلّ ما نشعر به تجاههم، ونحاول أن يصلهم إحساسنا ويشعرون بأنّهم مهمون جداً في حياتنا؛ وأننا نحبهم فعلاً ليستمتعوا بوجودنا ونستمتع بوجودهم في علاقة حميمية إنسانية صادقة لأنها الوحيدة التي ستبقى في ذاكرتنا... تماماً كما هي حالتي الآن..

ولكن لماذا لا نقترب من الله إلا اذا اقترب الخطر وشعرنا بالخوف ..، ولماذا نبتعد عن الله وننساه .، كلما ابتعد الخطر والخوف عنا !؟

وتذكرتُ الأيقونة التي قدّمَتْها لي رئيسة دير صيدنايا كاترين أبي حيدر منذ ثلاثين عاماً وبقيت معي سنوات طويلة، وبقدر ما حزنت لأني أضعتها بقدر مافرحت حين أعادتها لي صديقة عزيزة من قلب صيدنايا المقدسة.

أغمضْتُ عينيّ، وبدأت أُصلي مافي تلك الأيقونة:

يا والدة الإله يا أم النور يا سيدة صيدنايا

صوني عبيدك الحاملين أيقونتك هذه المقدّسة

من كل شدة ومن كل خطر ومن كل ضيق

وسهّلي بيمينك أمورهم.. آمين.

تناولت القليل من الطعام، وشربت كأساً من الأوزو اليوناني الأبيض، وكم تمنيت أن يكون بدلاً عنه كاسة من العرق المحرداوي المثلث الأبيض مع صحن شنكليش وزيتون أخضر وأسود ومكدوس..

وتذكرت صديقي المحرداوي الأصيل أيمن يعقوب الذي اتصل مُرحباً بي باليونان، وندمت لأني اعتذرت عن تلبية دعوته لشرب كأس عرق محرداوي

بصحبة الدكتور كمال الجاجوم في جزيرة كريت وفضلت الذهاب لمعرفة الحقيقة التي قذفتني في ورطة لا أعرف إن كنت سأخرج منها سالماً..

يا إلهي..

لماذا كلّما حاولت الاستنجاد بإنسانيتي، لا أجد إلا ذكرياتي في سورية!؟.

والآن.. وبعد أن سلمت أمري لله..

– تُرى ما الذي ينتظرني؟

وما هو السؤال الذي تحدثت عنه فيفي وقالت لابد منه!؟

هل يتعلق بسورية؟ أو بأصدقاء.. أو شخصي!؟

ماذا لديهم بعد!؟

والسؤال الأهم من هم!؟

هذا السؤال الذي لم أستطع أنْ أجدَ له إجابة، ولهذا يقلقني، لأنّي لا أعرف مَنْ الذي يتحَكّم بمصيري !!

ما كدت أنهي طعامي، حتى عادوا من جديد، وجلس كل منهم في مكانه تماماً، ومباشرة وبدون أيّ مقدمات قالت فيفي:

– هل تعرف مسيو جان بول . م !؟

فوجئت بالسؤال، وشعرت بغصّة حزن لمجرد ذكر اسمه، تأملتها وهي تنتظر إجابتي..

قلت بصوت خافت : الله يرحمه.. نعم كنت أعرفه

– هل ألتقيته أول مرة في جنيف خلال عمله كمدير للبنك!؟

– نعم ..

– هل تكررت اللقاءات!؟

– نعم ..

سألتني وهي تُصحّح من وضعية نظارتها:

- كيف تطورت صداقتكما!؟

. قصة طويلة بدأت بسوء تفاهم، وخلاف، ثمّ مرّت بظروفٍ صعبة جداً وامتحان قاس نتج عنه موقف قد لا يتكرر أبداً، أسعده ذلك وأسعدني، أنقذه وأنقذني، وأصبحنا أصدقاء ولن أنسى هذا الرجل أبداً..

تدخل الكسندر مستفسراً :

- كلامك أشبه بلغز.. كيف تبدأ علاقتكما بخلاف ثم تتحول إلى صداقة رائعة!؟

هل لك أن توضح أكثر!؟

تنهدت بصمت، ونظرت في وجوه الثلاثة أمامي وقلت:

- لا أعرف ماذا يهمكُمْ من أمر حياتي الشخصية وعلاقتي الخاصة بأصدقائي؛ أعتذر يا عزيزي عن الإجابة خاصة وأنّ مسيو جان بول قد رحل منذ سنوات، ولن يفيد الحديث بخصوصيات الأموات..

عادت فيفي تقول:

- طبعاً لك الحق بعدم الإجابة، ولكن قد يكون لدينا تصور آخر يدينك أنت، وبحاجة إلى أنْ نسمَعكَ بهذا الشأن لنتأكد ونقارن بين كلامك وبما نعرفه، وإن أردت نصيحتي: تكلّم بما تعرف وسنسمعك..

قلت: أنا أعرف بأننا لم نفعل شيئاً خارجاً عن القانون، ولا أي شيء لا يرضي الضمير، أو يؤذي أيّ إنسان وهذا هو المهم..

قالت: ورغم ذلك هناك علامات استفهام بحاجةٍ لتوضيح؛ لذلك من الأفضل أن تأخذ بنصيحتي..

فركت وجهي، وأنفي.. وقلت:

- في بداية ربيع ١٩٩٣ وصلت جنيف ونزلت في فندق لو..... . وهو الفندق المفضل لديّ لأن مديره مصري الجنسية يحبُ الفن والفنانين والشعراء والإعلاميين وسهر الليل؛ يحدثني عن حياته وذكرياته عندما عاش قصة حب مع الفنانة المصرية نيللي وخطبها؛ وكان يتنهد بحسرة لأن علاقتهما لم تستمر ثم لاينهي كلامه إلا في حالة السكر الشديد.

وفي صباح اليوم الثاني توجهْتُ للبنك السويسري بناءً على نصيحته لفتح حساب بنكي سري للغاية، والتقيت بمدير البنك ووقعت على عقد ينص بإيداع مبلغ كذا بفائدة كذا لمدة ثلاث سنوات بثلاثة شروط

الأول : يودَعُ المبلغ بسريّة تامة ولا يحق للبنك تقديم أي معلومات لأي جهة كانت.

الثاني: لا يحق لأي شخص مهما كان المطالبة بالمبلغ إلا من جاء اسمه بالعقد كمستفيد ثانٍ وثالث وذلك في حال الوفاة فقط.

الثالث: لايحق لي سحب المبلغ قبل انتهاء المدة المُتفَق عليها.

وغادرت البنك مباشرة للمطار وفي محفظتي نسخة من العقد..

مرت أكثر من سنتين ونصف شعرت بحاجتي لمبلغ ما.. فتوجهت لجنيف فوصلتها صباحاً وتوجهت مباشرةً للبنك، وعبثاً حاولْتُ أن أقنعَ الموظف المسؤول بحاجتي للمال إلّا أنّه رفض، وبأنّه لايعرف شيئاً ويجب مراجعة المدير..

التقيت المدير جان بول وشرحت له حاجتي الضرورية لمبلغ مئة ألف فرنك فرنسي فوضعني أمام خيارين: إمّا أن يبقى المبلغ ستة أشهر أخرى حتى يستوفي المدة الموقعة بالعقد أو أحصل على المبلغ الذي أحتاجه ولكن سأخسر كلّ الفوائد المُسْتحقة بالعقد..

ووقَعْتُ في حيرة من أمري وغضبت ولكن لم أجد أمامي خياراً ثالثاً.. فوافقت.. وكتب جان بول ورقة صغيرة وختمها وقال لي: تفضّل أعطها للموظف المسؤول وستحصل على المبلغ الذي طلبته.. ورافقني لباب غرفته ومدّ يده مودعاً فلم أكترث له، ومضيت وأنا في حالة غضبٍ شديدة..

سألتني فيفي: هل هذا هو سوء الفهم والخلاف التي تحدثت عنه!؟

قلت: نعم..

قالت: وماذا حدث بعد ذلك!؟

قلت: أخذتُ المبلغ الذي أريده وهمَمْت بالمغادرة.. ولكن فكرت بغضب: مادُمْت لن أحصل على فوائد فلن أتركَ بقيّة المال هنا.. وهذا ما جعلني أعود لمدير البنك وأطلب منه تصفية حسابي بالكامل فوافق على مضض، واتصل بمدير قسم الإيداعات المُجمّدة السريّة وطلب منه أن يعطيني كاملَ حسابي مع تمزيق نسختيّ العقد، وكأنّ شيئاً لم يكن..

وفعلاً توجَهْت لقسمٍ آخر.. فاستقبلني مدير القسم وقدّم لي فنجان قهوة ريثما تنتهي كافة الإجراءات ووضع كاملَ المبلغ في محفظة، واستلم مني العقد وقارنه بنسخته ووضعهم في جهاز إتلاف فتحوّلوا إلى قصاصات صغيرة في سلة المهملات وودّعني.

خرجت من البنك، وذهبت للفندق لأجد صورة كبيرة للمطربة السورية / س . ا / . تتوسط صالون الفندق تُعلن عن حفلات في الصالة الذهبية.. ففرحت جداً بوجودها لأنّها صديقة عزيزة..

في المساء.. دخلت الحفلة رأيتها تقف بقامتها، وبصوتها الرائع تُغنّي.. وقفْتُ أتأملها مبهوراً طرباً.. ورأتني أبتسم وأصفق لها.. لا تصدق ما تراه؛ ولم تتمالك فرحتها.. فتوقفت عن الغناء لتعلن ترحيبها بي بأجمل العبارات.. ورأيتها تتقدّم نحوي فتقدّمت نحوها وكان لقاءً رائعاً.. وسهرة رائعة.. ومشوار منتصف

الليل في الشارع المُمْتَد مابين الفندق وبحيرة جنيف الرائعة ذات النوافير العالية؛ وكان حديث الوطن بكلّ ما فيه من أحبّة وذكريات..

وغادرت في اليوم الثاني عائداً إلى السويد لأجدَ أمامي مفاجأة لم أتوقعها أبداً !!

مفاجأة وضعتني في حيرة قاتلة !؟

توقفت عن الحديث وتأملت الثلاثة أمامي، وقلت:

– يكفي ذلك أم يجب أن أكمل!؟

قالت فيفي: بل نتمنى أن تُكْمل.. ماذا كانت المفاجأة !؟

قلت: بعد عودتي بأيام قليلة، اكتشفت بأنّ المبلغ الذي قبضته من بنك سويسرا أكبر بكثير من المبلغ الذي أودعته في البنك.. وبعد أن أعدت حساباتي أكثر من مرة تأكدت بأنّ ثمّة خطأ قد حصل ولكن كيف لا أعرف!؟

سألني ألكسندر:

– وماذا فعلت!؟

– بعد مرور أكثر من أسبوع تحدّثت مع زوجتي بكل التفاصيل التي حدثت فكان جوابها مباشرة أن أعيد الاتصال بالبنك.. فوعدتها بذلك ولكنّي انشغلت وكدْتُ أنسى فعلاً، لكن زوجتي عادت تسألني إن كنت اتصلت بالبنك..

فقلت لها: حقيقة انشغلت ونسيت.. فطلبت مني رقم تلفون البنك فناولتها كرت باسم مدير البنك ورقم هاتفه.. وحاولَتْ الاتصال به أكثر من مرة ولكن للأسف كان التلفون يرن ويرن بدون مجيب.. وعاودت الاتصال في اليوم الثاني والثالث بدون أي نتيجة، ثم بحثت بالإنترنيت عن اسم البنك وحصلت على أرقام أخرى وعاودت الاتصال وطلبت أن تتحدّث مع المدير.. ولكن للأسف كان في اجتماع هام فتركت زوجتي اسمها ورقم تلفونها مع السكرتيرة وطلبت منها أن تعطيه لمسيو جان بول، وشدّدتْ على ضرورة أن يتصل بنا..

ولم تمض ساعة من الزمن حتى كان جان بول يتصل ويتحدث مع زوجتي بلهفة من يريد أن يتحدث كل شيء قبل أن يفصل الخط، وكانت زوجتي تسمع وتتكلم ثمّ اختلط الكلام بالدموع، وأنا أحاول أن أفهم السبب، وهي تشير لي أن أنتظر.. أعطته عنواننا، وأرقام تلفوناتي في العمل والبيت والموبايل وأغلقَتْ السماعة..

نظرَتْ إليّ والدموع تتلألأ في عينيها ثمّ حضنتني بقوة وبعد أن هدأت أخبرتني بأن ثمّة خطأ قد حدث حين أخذْتُ جزءاً من المبلغ المودع وقبل أن ينزل على الحاسوب عُدْت وطالبت بكامل المبلغ وفعلا هو وقّع على أمر أن يصرف لك كامل المبلغ من رئاسة القسم وتمّ صرف المبلغ كاملاً وهكذا أصبح لديك المبلغ زائد المبلغ الأول الذي قبضته...

وغادرت البنك بعد تمزيق العقد بحيث لم يبقَ أي إثبات كما كان مُتفق عليه.. وحين اكتشف البنك الغلط .. وُجهَتْ لمدير البنك في بادئ الأمر تهمة سوء تصرف وإهمال والبحث عنك وإعادة المال إلى البنك، ولكن بعد التدقيق وعدم وجود أيّ إثبات يدل على اسمك وعنوانك خاصة أنّ كل ما تذكّرَهُ هو أنّ الاسم عربي والعنوان الذي تذكّرَه كان دمشق – شارع بغداد.

فقد وجهت له تهمة تدبير زبون وهمي والاستيلاء على مال البنك.. لهذا لم يكن يصدق أن التلفون من السويد وأننا نقيم بالسويد وكان يبكي ويتوسل بأن مستقبله المهني وسمعته مهدّدة وقد يُحْكم عليه بالسجن ..

كانت زوجتي تحدثني وهي تبكي حين رنّ التلفون وكان هو، وقال لي:

– عزيزي أريد أن أقول لك، وأن تسمعني مباشرة، وأن تفهم أنّ سُمْعتي وسمْعَة عائلتي ومستقبلي بين يديك

قاطعته قائلاً: مسيو جان.. أتمنّى أن تتذكر أننا نحن من اتصل بك، وهذا يعني أنّ لدينا الرغبة الأكيدة أن نُعيدَ الحق لصاحبه.. لهذا أريدك أن

تتفضّل بزيارتي للسويد مُصْطحباً معك الحسابات النهائية، وقيمة المبلغ الذي يجب أن أعيده لكم وأنا تحت أمرك..

قاطعني: لا أستطيع ذلك يا سيدي.. وأتمنى أن تتفهم موقفي.. أنا مُتّهم بتلفيق زبون وهمي.. ولو غادرت سويسرا إلى السويد وأعدت المبلغ سيفهم بأني أعدت المبلغ الذي سرقته بعد أن افتضح أمري.. وأنت تعرف أنّ ذلك غير صحيح... بل أنت الوحيد الذي يعرف ذلك.. والحل الوحيد أن تأتي للبنك وتروي لأعضاء مجلس إدارة البنك ما حدث وتُعيد المال...

وبعد إلحاحه وعدته بأنّي سأكون قبل نهاية الشهر..

فصمت ثم قال: يا سيدي أرجوك لا تقتلني.. إن لم تأت خلال هذا الأسبوع سيُحْكم عليّ في بداية الأسبوع القادم...

ووجدْتُ نفسي في حيرة.. فأنا بدأت مشروعاً جديداً وملتزم بمواعيد ولا أستطيع السفر بالوقت الحاضر ولكن رغم ذلك وعدته خيراً، وأغلقت سماعة الهاتف وتحدثنا طويلاً أنا وزوجتي حول الخير والشر وقيمة الإنسان بأعماله وليس بماله.. وفي الصباح تحدثت مع شريكي اللبناني س . ع .. فشجّعني على الذهاب فوراً وفي اليوم الثاني وجدت لي مكاناً بالطائرة المتوجهة إلى جنيف الساعة السادسة مساء ...

جنيف ليلة ١٧ نيسان ١٩٩٣

وصلت جنيف حوالي الساعة الثامنة مساءً وتوجهت مباشرة بتاكسي المطار إلى فندق لو..... فاستقبلني صديقي مدير الفندق شربت معه القهوة ثم صعدت لغرفتي وغفوت قليلاً ثم استيقظت على رنين تلفون الغرفة، وكان كالعادة مدير الفندق وقال لي: أمامك ساعة يا صديقي وسنلتقي بالصالون لنسهر سوية ونسمع صديقتك المطربة السورية / س . ا / ..

وهذا ما حدث تناولنا العشاء وسهرنا واستمتعنا بالرقص الشرقي وصوت السوري الأصيل وفي نهاية السهرة سألتني:

- ما الذي جاء بك بسرعة إلى جنيف!؟

قلت ضاحكاً: اشتقت إليك؛ وشعرت بالحنين لصوتك فجئت مباشرة ..
وأدركت بأنّي أمزح، وعادت تسألني فقلت لها:

- اليوم ١٧ نيسان وهو عيد الجلاء في سورية فجئت أحتفل معك بهذه المناسبة السعيدة.. وشهقت فرحاً ونادت هاني: سنكمل الاحتفال في هيلتون أوتيل.. وفعلا خرجنا نحن الثلاثة وتناولنا الحلويات ورقصنا وسهرنا وفي طريق العودة.. عادت مرة ثالثة تسألني عن سبب عودتي لجنيف فأخبرتها بكل ما جرى..

تأملتني مستغربة: هل ستعيد المبلغ!!!

قلت: نعم

قالت: هل تعلم بأنك تستطيع بهذا المبلغ أن تشتري بيتاً كبيراً في دمشق!؟

قلت : نعم أعرف ذلك..

قال هاني: غريبة هذه الدنيا.. هناك من يُخطّط ويُغامر ويَقتَحم البنك ليسرق مالاً وقد ينجح وقد لاينجح

.. وهناك من يأتيه المال من البنك بسهولة، وليس هناك إثبات أو دليل ومع ذلك يعيده من تلقاء نفسه.

ثم وقف على ناصية الشارع، وصرخ بأعلى صوته: بحبك أيّها السوري.. ما أروعك.. وعانقني.

التفَتَتْ إليّ صديقتي المطربة وقالت: يا إلهي.. كلّما تعرّفت إليك أكثر كلّما وجدْتُ نفسي أحترمك أكثر وأكثر.. أنت رجلٌ تعرفُ كيف تفْرضُ احترامك.. ها قد مرّتْ سنوات طويلة على صداقتنا كنْتُ حين أسافر للقاهرة أوصيك بأمي فكنت لها كإبنها البار.. وكنت لأولادي بمثابة الأخ الكبير، وكنت بالنسبة لي صحفياً وفناناً وكاتباً وصديقاً وأخاً، وهاأنا الآن أتشرّف بك في سويسرا.. أشكرك لأنك أتحْتَ لي فرصةَ أن أرى بعينيّ لأول مرة صديقاً مصرياً يقف في وسط الشارع ، ويصرخ : بحبك أيّها السوري.. ما أروعك.. يكفيني هذا.. شكراً أيها الرائع..

في الصباح اتجهت للبنك، فاستقبلتني سيدة إفريقية الملامح، وطلبَتْ مني أن نذهب سوية إلى زوريخ حيثُ مقر إدارة البنك.. وفهمت بأنّ المسيو جان بول ينتظرنا هناك..

استقلينا القطار وفي الطريق حدثتني عن المصاب الذي أصاب جان بول من جرّاء هذه القصة، وعن سعادتها حين عرفت بأن الزبون رجل عربي قرّر أن يعيد المبلغ فهذا يزيد من رصيد العرب ورصيدها لأنها من أصول مغربية.. ووصلنا، ودخلنا مبنى ضخماً.. فتح الباب فوجدت طاولة طويلة يقف حولها مجموعة من الرجال والسيدات..

استقبلني جان بول وطلب مني أن أقدّم نفسي وأشرح للسادة أعضاء مجلس الإدارة مُلابسات ما حصل، وفعلاً شرحْتُ لهم كما حدث تماماً.. ووضعْت الشنْطة على الطاولة وفتحتها وقلت لهم: هذه نقودكم أعيدها لكم مع الاعتذار..

نهضت سيدة تجاوزت الستين من عمرها وفتحت خزنة وقدّمت لي مجموعة هدايا.. أذكر منها صورة بالأبيض والأسود تُمثّل مدينة جنيف في القرن السابع عشر، وبطاقة البنك الذهبية، وبطاقة عضوية شرف بالبنك، وشكرتني.

ثم تحدّث جان بول، وقال: وأنا أيضاً أشكرك جداً، وأتمنّى أنْ تسمحَ لي أنْ أتكفّل بدفع نفقات قدومك وإقامتك في سويسرا من مالي الخاص، ثمّ فتح علبة حمراء بداخلها فرنك ذهب سويسري وقال: هذا الذهب للمرأة الذهب زوجتك.. المرأة التي سمعت صوتها لأول مرة فأدخلت الفرح لقلبي والأمل لحياتي وشعرت بإنسانيتها من خلال بكائها.. أرجوك أن تُبلّغها تحياتي وهذه بطاقتي الخاصة أقدّمها لك لأقول مرة ثانية شكراً.. وتذكّر دائماً أنّ لديك صديقاً في جنيف.. فردّتْ رئيسة مجلس الإدارة: ونحنُ نعتذر لأننا خسرنا زبوناً مثلك بسبب قوانين البنك ولكن بانضمامك الآن كعضو يحمل البطاقة الذهبية هذا يعني بأنّ البنك أبوابه مفتوحة لك في أيّ نشاط تراه مناسباً ..

وسلَمْتُ عليهم واحداً واحداً.. وقبل أنْ أغادر طلبَ مني مسيو جان بول أنْ أرافقه لتناول الغداء مع عائلته في بيته.. فوافقت..

حين دخلت بيتهم وجدْتُ زوجته تهرَع إليّ تُعانقني وهي تُردّد: شكراً.. شكراً وهي تعرفني على بناتها كلودين ومارلين..

تناولنا الغداء والفواكه وشربنا الشاي وأنا أداعب بناته الصغار.. وشكرته وهممت بالرحيل.. استوقفتني زوجته وسألتني:

– لماذا أعدت المال!؟

– هل تعلم بأنّني قطَعْتُ الأمل!؟ وبدأتُ أُجَهّزُ نفسي لفقدان زوجي لوظيفته أو لحياته معنا، وكنت أنظر كل مساء لبناتي وأنا أتساءل: غداً عندما يكبرن هل سيُصدّقون أنّ والدهن مُخْتَلس؟؟

وكان هذا يؤلمني جداً؛ ولم يكن أمامي إلّا الصلاة وإشعال الشّموع، وتعرفت على صديقة زوجي المغربية التي رافقتك بالقطار إلى زرويخ فقدمَتْ لي قطعةَ نحاس مكتوب عليها: يا رب لا أسألك ردّ القضاء ولكن أسألك اللُّطْفَ فيه..

ولكن حين أخبرني زوجي بتلفون زوجتك واستعدادك للمجيء إلى هنا لإعادة المبلغ لم أُصدّقْ للوهلة الأولى، خاصة ما نسمعه عن العرب، ومشاكلهم التي لا تنتهي حتى في أوروبا.... اعذرني لصراحتي، ولكن فيما بعد تأكدت أنّ هناك إنساناً يشبهنا، وأنّ الصّلاة والشموع كانت في عينيّ زوجتك الدموع التي انهمرت.. ويبقى لديّ فضول أن أعرف: لماذا أعدت المال؟!

تأملتها، وتمنيتُ أنْ أحْضُنها، ولكنّي اكتَفيتُ بالقول:

- سيدتي.. أنت تحدثت عن الصلاة والشموع، واستشهدت بقول: اللهم لا أسالكَ ردّ القضاء ولكن أسألك اللُّطْفَ فيه.. وهذا يعني بأنّك قريبة من الله؛ وأنّ الله يَسْكُن روحك فلا تخافي.. زوجك قال لي: بأنّه لم ينَمْ منذ أسبوعين فهل أحتفظُ بمالٍ ليس مالي، وأطعم به أولادي ويبقى ضميري يؤنبني طيلة حياتي..

سأقول لك لماذا؟؟

نحنُ في سورية مسيحيين ومسلمين تعلّمْنا أنّ الدّيْن لله، وأنّ الدّيْن الحقيقي هو مُعامَلة الإنسان لأخيه الإنسان، وسأعطيك مثلاً: لو كانَ ضميري مرتاحاً وتعرّضْتُ لحادث سيارة أو تعرّضَ إبني لمرضٍ ما أو تعرّضَتْ عائلتي لأيّ مصاب سأقول هذه مشيئة الله، ولكن لو كنْتُ احتفظتُ بمالٍ ليس مالي وحدثَ معي أيّ شيء ممّا ذكَرْت سأبقى أقول: حدثَ ذلك لأني ظلَمْت فلاناً، وفلان انظلمَ بسببي، وسيبقى ضميري يُعذبني طيلةَ حياتي.. وتذكّري دائماً أنّ الإنسان يحصد ممّا يزرع، وأنا أريدُ دائماً أن أزرعَ جيداً...

قالت: بارك الله فيك.. هل تعلم بأنّ زوجي لم ينَمْ منذ أسبوعين!؟

ضحكت وقلت: المظلوم والظالم لا ينامون يا سيدتي ..

زوجك لم يستطع النوم أسبوعين لإحساسه بالظلم الذي وقع عليه، وأنا كظالم سيبقى ضميري يُعذبني دائماً ولن أنام طيلةَ عُمري لو لَمْ أعيد المال..

حضنتني بقوة،... وهذا ما كنتُ أتمنّاه من اللحظة الأولى.. وتأمّلتني بابتسامة فرح وقالت: شكراً.. أشعرُ بالسعادة لمعرفتك، وأتمنى أن تتذكرنا دائماً...

خرجتُ عائداً إلى جنيف، وأنا ألعَنُ كلّ مَنْ ساهم في تشويه صورة الشّرقي في بلاد العالم، وفي جنيف حزنت حين فوجئت بحريق قد شبّ في غرفة المطربة جاء على كل ثيابها وأمتعتها، ودعتها وودعت مدير الفندق هاني، وعدت إلى السويد..

واستمرت علاقتي بمسيو جان بول، وتعاونت مع البنك في عدّة صفقات تجارية ناجحة وتعمّقت علاقتنا العائلية في الأعياد والمناسبات وأصبحنا أصدقاء مقرّبين جداً حتى كان ذلك الحادث المشؤوم الذي لن أنساه أبداً.

نظرتُ في وجوه المحققين الثلاثة: – إنّ ذلك مؤلم جداً.. قلت ذلك وأنا أمسحُ الدمعةَ التي انهمرت من عيني..

سألتني فيفي: – ماذا حدث بعد ذلك!؟

سألتها: هل يجب أن أُكمل!؟

قالت: نعم..

قلت: هذا مؤلمٌ جداً.. مجرد التفكير بما حدث يؤلمني ويعذبني..

قالت: أتمنى أن تروي ما حدث بصدق، وأعدك أن ترى الشمس غداً..

ما إن ذكرت الشمس حتى ارتسمت على وجهي ابتسامة أمل، وفي مُخيّلتي جاء صوت فيروز وفنجان قهوة.. نعم قهوة..

وطلبتُ فنجان قهوة..

العاصمة الأستونية ـ تالين ٢٧ سبتمبر ١٩٩٤

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر حين خرجت بسيارتي من مرآب فندق ماريتون غراند إلى فندق أوليميسته المُطل على بحيرة أوليميسته الشهيرة حين كان ينتظرني أصدقائي الثلاثة بأمتعتهم، وانطلقنا إلى مُنتزه تومبيا؛ وطلبت من أصدقائي الصّعود إلى قلعة تومبيا الشهيرة؛ ووقفنا في أعلى نقطة نتأمل جمال المشهد، وأخرجت أربع علب بيرة وقلت: لا يقف على القمة إلّا النسر القويّ؛ وهانحنُ اليوم نشعرُ بأنّنا أقوياء؛ لأننا أنجزنا أهمّ صفقة أخشاب في تالين.. لنشرب نخب هذا النجاح..

وصلنا الميناء حوالي الساعة الخامسة مساءً، فصعدنا الباخرة التي ستنطلق في الساعة السابعة مساءً إلى العاصمة السويدية استوكهولم.. وبينما كنت أُرتّب أمتعتي في غرفتي رنّ الموبايل وكانت زوجة جان بول تبكي وتخبرني بأنّ زوجها تعرّض لأزمة قلبية؛ ونُقل إلى المشفى في حالة خطرة جداً.. أسرعت إلى أصدقائي وقلت لهم: سأغادر الباخرة إلى المطار مباشرةً إلى جنيف لأن جان بول تعرّض لأزمة قلبية ويجب أن أكون معه، لذلك ستبقي سيارتي والأوراق والعقود معكم، وسآخُذ قيمة القرض المُسْتحق معي للبنك في جنيف وأُسدّده مباشرةً، وأرباح الصفقة تبقى معكم.. وستصلون استوكهولم الساعة التاسعة والنصف صباحاً تذهبون مباشرةً للبنك وتضعون المال في حساب الشركة.. ونزلت من الباخرة قبل الإقلاع بساعة تقريباً.. واستقليت تاكسي إلى مطار تالين فوجدت رحلةً إلى جنيف التي وصلتها بعد منتصف الليل بقليل..

جنيف ٢٨ سبتمبر...

وصلت المشفى فوجدت زوجته متعبةً بقرب سريره.. استغربَتْ قدومي بسرعة؛ فطلبْتُ منها أن تُخبرني ما الذي حدث!! خرجنا إلى كافيتريا المشفى؛

وأخبرتني بما حدث وأنّ الأطباء مُطمئنون الآن لوضعه الصحي وسيبقى تحت المُراقبة بانتظار ماسيُقرّره الطبيب في جولته الصباحية.. وشكرتني وشدّت على يدي..

فابتسمتُ لها قائلاً: لا تشكُريني أبداً.. أنت تعرفين أنّ جان بول صديقي.. واستأذنتها بالذهاب إلى الفندق لأنام قليلاً على أن أكون في المشفى صباحاً.

فندق غراند كمبينسكي – جنيف.

استيقظتُ صباحاً على اتصال من صديقي هاني، يطلب مني النزول فوراً إلى صالة الفندق.. أغلقْتُ سمّاعة الهاتف ونظرتُ في ساعة يدي فوجدتها السادسة صباحاً.. لبستُ ثيابي على عجل؛ ونزلْتُ كالمجنون؛ وثمّة خوف انتابني حول صحّة جان بول..

لكني وجدته يستقبلني وهو يُشير لشاشة التلفاز: – أنظر.. كارثة حقيقية حدثت في السويد.. تأمّلتُ المشْهد.. وصُعقْت!!! أكاد لا أصدق ما أرى!!؟

واستنجدْتُ بهاني أن يشرح لي..

فقال: – نشرة الأخبار الصباحية تقول إنّ الباخرة أستونيا التي أقلعت من تالين الساعة السابعة من مساء أمس باتجاه استوكهولم قد غرقت في بحر البلطيق الساعة الثانية عشرة وخمسة وخمسين دقيقة، وأنّ البحث مازال جارياً عن أحياء.. وشعرت بدوار.. وصرخت وبكيت.. وطلبت من هاني أن يوصلني مباشرةً إلى المشفى، والتقيت بزوجة جان بول التي كانت في قاعة الكافيتريا تشاهد المأساة.. فهرعت إليّ باكيةً وهي تستوضح بيدها كالخرساء... وأجبتها برأسي بالإيجاب.. – نعم هذه هي الباخرة التي كنت سأستقلها .. نعم هذه الباخرة فيها أصدقائي وسيارتي ومالي ولا أعرف عنهم شيئاً.. نعم نعم وأجهشْتُ بالبكاء بين يديّ هاني ويديها... وتذكرت زوجتي.. فأخذت تلفون هاني واتصلت بزوجتي بالسويد وكان الخط مشغولاً .. فطلبت عدم إخبار جان بول بأي شيء حالياً .. ووضعت المال بين يديّ زوجته على أن تُسدّده للبنك نيابةً عني..

ودخلت ألقي التّحية على جان بول ومازحته واعتذرت منه لأنني مضطر للسفر..

خرجت وأنا أكبح حزني وغضبي وألمي وخوفي.. فاستوقفتني زوجته أمام مصعد المشفى لتقول لي: – هل تذكر ما قلته لي في أول لقاء!؟ قُلت لي: ياسيدتي تذكري دائماً أنّ الإنسان يحصد ممّا يزرع، وأنا أريد دائماً أن أزرع جيداً، ثم تابعت وهي تشدّ على يدي.. هاأنت قد نَجوْت لأنك زرعت جيداً يا صديقي.. فلولا عودتك العام الماضي بالمال لما كانت صداقتك مع جان بول.. ولما كان اتصالي بك ليلة أمس؛ ولما كان قدومك إلينا بهذه السرعة؛ ولما كانت نجاتك لتعود لعائلتك بخير وسلامة.. بلّغْهم تحياتَيْنا.. فحضنتها وقبلتها من جبينها؛ وغادرت إلى المطار..

وبينما كنت أحاول الاتصال بزوجتي كان هاني يُردّد في السّيارة: ألم أقل لك أحبك أيّها السوري..

اتصلت بزوجتي التي فوجئت بالاتصال وانهارت تبكي وتشكر الله لاعتقادها بأني على متن الباخرة.. وإنها من ساعات الفجر تحاول الاتصال لتعرف أيّ شيء عن الناجين، وسألتني عن أصدقائي الثلاثة.. لم أعرف ماذا أُجيب، فبكيْتُ وبكَتْ وكانت الدموع هي البحر الذي غرقنا فيه..

استوكهولم ٢٨ سبتمبر الساعة الواحدة ظهراً .

وصلت مباشرة من المطار إلى الميناء.. لأجد طوقاً أمنياً كبيراً، والآلاف من السويديين جاؤوا ليطمئنوا على أقاربهم أو أصدقائهم.. وعشرات الجثث في أكياس النايلون وطائرات الهيلكوبتر تُحلّق فوق البحر، في مشهد لن تنساه السويد أبداً.. تقدّمتُ من البوليس أسأل عن أسماء الناجين، فقيل لي مازال الوقت مبكراً لمعرفة ذلك.. وبعد ثلاثة أيام أدركت بأن ٨٠٣ قد غرقوا مع السفينة ونجا فقط ١٨٦ ولم يكن بينهم أيّاً من أصدقائي.. فحزنت جداً وعدت

إلى منزلي، وكان أصعب موقف مرّ في حياتي حين هرعت إبنة صديقي تسألني: أين أبي؟؟ ثم تضربني بيديها وهي تصرخُ باكيةً: أنا لا أحبك.. أين تركت أبي؟؟

مضى وقت، وجاء جان بول وزوجته ليُقدّما التّعازي لعائلات أصدقائي، وذهبنا بالباخرة إلى المكان الذي غرقت فيه الباخرة أستونيا ونثرنا الورود.. وأصبح هذا اليوم المشؤوم ذكرى الذين غرقوا والذي وصل عددهم إلى ٨٥٢ شخصاً، ومازال أهالي الضحايا يجتمعون في مثل هذا اليوم على الشاطئ يُشْعلون الشموع وينثرون الورود .. وبعدها بأربع سنوات استقال جان بول من إدارة البنك؛ ليعمل في البنك الدّولي في بروكسل؛ وكانت طبيعة عمله تتطلب السفر كثيراً إلى بلاد كثيرة.. وقد كان آخر لقاء لنا صيف ٢٠٠٩/.. بعدها بعدة أشهر فُقد الإتصال به في أفريقيا؛ وقيل أنّ قبيلة إفريقية قتلته، لكنّ زوجته كانت تُصرّ دائما بأنّه مفقود وسيعود يوماً.. لهذا كانت تسافر كثيراً بحثاً عنه، ولكن مع مرور الوقت بدأت تقتنع بأنه ليس على قيد الحياة، وأنا خسرتُ صديقاً رائعاً سأظلّ أذكره دائماً بكلّ الحب .

أنهيت حديثي وأنا أمسح ما تبقى من دموع في عينيّ؛ وقلت وأنا أتأمل وجوه المحققين الثلاثة: – هذه هي حكايتي مع جان بول وعائلته، وكنت أعتبرها حكاية شخصية جداً، ولم أكن أتوقع في يوم بأنني سأرويها لأيّ إنسان مهما كان..

قالت فيفي: ثمّة أشياء كثيرة في حياتنا نعتقد بأنها شخصية، وملك لنا فقط؛ ولكن نكتشف بأنّ حياتنا جزء لا يتجزأ من حياة الآخرين، وقد تكون متمّمة ومكمّلة لبعضنا البعض تماماً مثل لوحة قطع التركيب الصغيرة التي إذا فقدت قطعة ضاعت معالم اللوحة كلها..

قلت: هذا صحيح؛ ولكنّ الإنسان ليس مضطراً على البوح بأسرار الآخرين للغرباء..

ضحكت فيفي وقالت: إن كنت تقصدنا نحن بالغرباء؛ أحب أن أقول لك نحن جزء من اللوحة التي وضعت نفسك بها؛ وبرغبتك ومن تلقاء نفسك يا عزيزي..

قلت مصححاً: أنا لم أضع نفسي في هذا المكان برغبتي؛ بل رغماً عني وأنت تعرفين ذلك..

تدخل الكسندر بالحديث وقال: نحن استمعنا إلى حكايتك مع مسيو جان بول وتعاطفنا معك ومعه، ولكن ثمّة سؤال لابد منه : هل ما رويته هو الحقيقة أم أن هناك ما تخفيه حتى الآن !؟..

نظرت إليه نظرة حادة اخترقت وجهه؛ وقلت : - رويت باختصار كل ما حدث بشكل عام وليس لدي ما أخفيه إلا ... وتوقفت عن الكلام وأنا أنقل نظراتي في عيونهم التي بدت متلهفة لسماع ما سأقوله.. وبسخرية تابعت قائلاً: إلا .. أحلامي التي كنت أراها أثناء نومي..

ضحكت فيفي وقالت: رغم كل شيء مازلت تملك روح الدعابة..

فعاد الكسندر يسألني: . هل تحققت من موت جان بول؟!

فوجئت بالسؤال وباستغراب شديد قلت: كيف يمكن لي أن أتحقق من موت صديق؟؟

قلت لك كل ما أعرفه عن طريقة اختفائه وما أعرفه أنه لم يُعثر على جثته حتى الآن..

قال: ماذا لو كان كلامك كله كذباً ؟؟

قلت: كيف يُمكن أن أكذب وأنا مخطوفٌ وحياتي مهددة؛ ولا ينقذها إلا صدق أجوبتي التي ستقرر مصيري..

قال: لأنك سبق وراوغت الحقيقة حين سألتك عن الهاربون..

وبصعوبة حبست أنفاسي ورسمت على وجهي علامات استفهام مُصطنعة وقلت بشيء من التعجب:

- راوغت !!.. أنا لم أراوغ بشيء بل قلت كل ما أعرفه..

قال وهو يهز برأسه: لا.. لم تقل كل ما تعرفه بل راوغت وهربت من الإجابة عن تنظيم الهاربون بالحديث عن الهاربون من سورية إلى تركيا والأردن ولبنان؛ والآن نريد أن ننهي كل شيء مقابل أن تقول لنا حقيقة علاقتك بتنظيم الهاربون .

قلت: أنا قلت كل ما أعرفه، ولا أعرف عمّا تتحدث، ولا تربطني أي علاقة بتنظيم الهاربون لا من بعيد ولا من قريب..

قال: يبدو أنك نسيت بأننا زرعنا في جسدك جهاز كشف الكذب..

قلت: لا.. لم أنس وسيان إن كان موجود أم لا.. الحقيقة عندي لا تتجزأ أبداً..

قال بغضب: أنت تراوغ بخبث، وتكذب.. وتذكر بأن حياتك في كفة والحقيقة في كفة ثانية..

قلت له: هاأنت قلتها.. حياتي في الرهان فلماذا سأكذب!؟

قال: لأن هناك من قال غير ذلك؛ وأكد بأنك جئت إلى اليونان لتبحث عن الحقيقة وأن البرفسور فريدريك قدمك لنادي الهاربون وشرحوا لك حقيقة ما يحدث في العالم وخاصة في سورية ..

قلت: لو كان كلامك صحيحاً؛ وأنني حصلت على الحقيقة كاملة فلماذا لم أغادر إلى بيتي!؟ ولماذا بقيت هنا في جزيرة رودس أستمتع بإجازتي؟..

اقترب ماركوس مني وأشار إلى جهاز الكومبيوتر الذي بين يديه وقال: أنظر.. ورأيت إليزابيت تجلس بين ماركوس وفيفي والكسندر وأبراهام في غرفة مشابهة للغرفة التي نحن فيها..

ثم قال: سأوفر عليك الطريق وأخبرك: صديقتك إليزابيت ضيفتنا أيضاً؛ وسبق وحققنا معها واعترفت بكل شيء..

لذلك لا مجال للمراوغة وسنعطيك فرصة جديدة لتقول الحقيقة..

ورغم إحساسي بالمرارة لرؤية إليزابيت رهينة أيضاً، ورغم الإحباط والحزن الذي شعرت به إلا أني أصريت على إجابتي:

- قلت لكم كل ما أعرفه..

قال: ولكن إليزابيت قالت.. وقاطعته: لا علاقة لي بما قالته إليزابيت؛ فما قالته يخصها هي وحدها ولا يخصني أنا؛ وبالتالي هي مسؤولة عن كلامها..

تدخلت فيفي بالحديث قائلةً: نحن نريد مساعدتك للخروج من هنا؛ وكنا نصدقك ونصدق كل ما تقوله، ولكن حين تتضارب أقوالك مع أقوال أقرب الناس إليك إليزابيت التي اعترفت بعلاقتك مع الهاربون وبأنك جئت إلى هنا للقاء البروفسور فريدريك لمعرفة الحقيقة وقد عرفتها منه ومن مجموعة من الهاربون الذين يملكون أسرار علاقة البنك الدولي بالتنظيمات المسلحة في عدة دول، بالإضافة إلى اعترافك بأنك ساعدتها في دراسة اللغة العربية وأنك بعثتها إلى دمشق والتقت بأصدقاء لك قدموا لها المساعدة، فلماذا يجب أن نصدقك ولا نصدقها !؟

قلت: أنا قلت الحقيقة، ولست مسؤولاً عن كلام إليزابيت أو غيرها..

قالت: هل تنكر كلامها !؟

قلت: أنا لم أسمع كلامها، وإنما أنكر ما تقولونه عن لسانها.

قال الكسندر: وما الفرق!؟

قلت: بالنسبة لي الفرق كبير.. أنا أعرفُ إليزابيت كما أعرفُ نفسي؛ لذلك أستغرب أن تعترف بشيء لم يحدث !!

قال: هل هذا كلامك النهائي ؟

قلت: نعم هذا كلامي النهائي..

قال: حتى لو عرفت بأن لدينا شخصاً آخر يؤكد كلام إليزابيت!؟

قلت: حتى لو كان لديكم ألف شخص فأنا أعرف نفسي ومتأكد مما أقول.

قال: حتى لو قدمنا لك الإثبات بالدليل القاطع؟؟

قلت: مستحيل .. لأنه ليس هناك دليل قاطع على شيء أنا لا أعرفه..

تدخلت فيفي بالحديث قائلة: أريد أن أذكرك هذه فرصتك الأخيرة و.. وقاطعتها قائلاً : والرهان حياتي أعرف ذلك..

قالت: هذا يعني أننا وصلنا نهاية الطريق..

قلت: سأقول لكم وأنا على ثقة تامة عندما نصل إلى نهاية الطريق يجب أن يكون كل شيء جيداً وكما نريد نحن، وإذا لم تكن النهاية جيدة وكما نريد نحن فذلك يعني أننا لم نصل بعد للنهاية.

قالت: الشاهد الثاني والأهم سيحسم النهاية وهذه المرة ليست لصالحك للأسف.. ثم وقفت ونادت: أدخلوا الشاهد الذي سيضع حداً للنهاية.. والتفت باتجاه الباب ورأيته يقف أمام الباب.. تأملته وأنا لا أصدق ما أراه!! ويبدو أنّ الصدمة كانت أقوى من أن أستوعب حقيقة ما أرى؛ فأُغمي عَليّ.....

ثمّة أحداث نعيشها؛ نلمسها؛ نراها؛ ورغم ذلك نكاد لانُصدّقها، وهذا ماحصل معي حين وجدت نفسي وجهاً لوجه مع مسيو جان بول..

جان بول صديقي الّذي لم أره منذ صيف ٢٠٠٩.. ها أنا الآن أراه أمامي !!! أكاد لا أصدق أبداً!!

هاأنا أرى جان بول الذي اختفى في أدغال أفريقيا؛ وقيل أنّ قبيلة أفريقية قد خطفته وقتلته..

جان بول حيٌّ يُرْزق أكاد لا أصدق!؟

حين استعدت الوعي وجدت المحققين الثلاثة يتحدثون مع المسيو جان بول.. الذي هرع ليحضنني ويقبلني ويجلسني على الكرسي وهو يعتذر عن صدمة المفاجأة الصاعقة التي لم يتمنَ أن تكون بهذا الشكل..

أين كنت!؟ ولماذا قيل أنك... وماتت الكلمات في فمي؛ وأنا أرى ابتسامته ولا أصدق..

قال: سنتحدّث بكل هذا فيما بعد.. قاطعته: هل زوجتك تعرفُ بأنّك على قيد الحياة!؟

قال وهو يهز رأسه بالإيجاب: نعم.. حاولت الاستفهام ولكنّ فيفي تدخلت بالكلام مُقاطعةً: أتمنى أن ندعَ الأسئلة الخاصّة جانباً الآن؛ ونُنهي حديثنا الأهم..

التفتت إليّ وتابعت تقول: السيد جان بول أكّد كلام إليزابيت وهذا يعني أنّهم اعترفوا بكلّ شيء بينما أنت مازلت تُنكر كلّ شيء..

مرة ثانية تأمّلت جان بول وأكاد لا أصدق.. إليزابيت التي تبنيتها كابنتي غدرت بي؛ وهاهو صديقي جان بول يغدر بي.. كنت أنظر إلى صديقي جان بول الذي وضع رأسه بين يديه وكأنّه يتحاشى أن تلتقي عيناه بعيني، وثمّة سؤال كان يتردد بقوة في رأسي:

- هل سيضع أعزّ الأصدقاء حبلَ المشنقة حول عنقي!؟

عادت فيفي تقول: يجب أن ننهي هذا التحقيق، وسنُقدم لك فرصةً أخيرةً للإجابة الآن وللمرة الأخيرة:

- ما هي علاقتك بتنظيم الهاربون؟؟ وما هي أسماؤهم؟ وماذا أخبروك؟ رفع مسيو جان بول رأسه وقال لي:

- نصيحتي الأخيرة لك يا صديقي لا تفكر بنا؛ بل فكر بنفسك.. قل الحقيقة وكل ما عندك واخرُجْ من هنا فعائلتك بانتظارك...

مابين أسئلة فيفي ونصيحة جان بول والسؤال الذي يطنُّ في رأسي حول الخيانة والغدر من أقرب الناس؛ ومشهد حبل المشنقة يلتفُ حول عُنقي.. تذكرت سورية.. ووجدت تشابهاً كبيراً مابين ظروفي الآن وظروف سورية، بلدي الّذي فتح ذراعيه للغريب والقريب؛ واستقبلت الفلسطيني واللبناني والعراقي وطلّاب العلم من كل العالم العربي والأفريقي، سورية التي رفعَتْ شعار / أُمّةٌ عربيةٌ واحدة.. ذاتُ رسالة خالدة../ سورية الّتي زرعت المحبةَ ولم تحصُدْ إلّا الغَدْرَ والخيانةَ، وهاأنا الآن أحصدُ الخيانةَ والغدرَ بعد كلّ الذي زرعتهُ من محبة في طريق إليزابيت؛ وبعد كلّ الذي قدمتهُ لمسيو جان بول؛ هاهو بعد أن غدر بي يطلبُ منّي أن أعترف، وهذا يعني أن أنكُثَ اليمين الذي أقسمته لفريدريك بحضور مجلس إدارة الهاربون بأن أحفظَ سرّهم مهما كان الثمن..

تضاربت الصور في رأسي.. صورة سورية وهي تُصرّ على استضافة حماس والمطالبة بالجولان، واعتبار القضية الفلسطينية هي قضية العرب الأولى؛ والصهيونية هي العدو الأول.. وصورة خيانة قادة حماس وانضمامها للحلف الذي يضرب سورية بالعُمق... صور كثيرة مابين المواقف والمبادئ ومابين الخيانة والغدر ونشر الفوضى الخلّاقة والسؤال الآن: ماذا أفعل؟؟ هل أنجو بنفسي وليغرق المركب بما فيه؟ أم أحافظ على المبادئ التي تعلمتها وعشتها طيلة حياتي والتي شكّلت بمُجملها اسمي الذي أفتخر وأعتز به.. باختصار هل أكون سورية أم حماس!؟ وأزعجني أن يكون تفكيري قد وضعني في موقف يشابه موقف الخائن الأناني الذي لا يفكر إلّا بنفسه..

ولكن يجب أن أنجو من هذه الورطة..

وتذكرت الجندي السوري الذي يتصدّى لحرب كونية وتساءلت: ماذا كان سيحلّ بالوطن لو فكر الجندي بنفسه وهرب؟؟ هاأنا الآن أمام خيارين لاثالث لهما: الموت أو الحياة.. وعدْتُ أُعيد ترتيبَ الأحداث من البداية؛ إليزابيت ومسيو جان بول..

إليزابيت.. هل يمكن أن تغدرَ بي!؟ والجواب المنطقي لا.. إليزابيت التي شاركت في قافلة الحرية وتعرّضت لإصابة من قبل الهجوم الإسرائيلي؛ وتمّ القبض عليها؛ وتعذّبت؛ ولم تعترف بكلمة!! فهل يُعقل أن تعترفَ الآن ضدي!؟ إليزابيت التي تحدّت الاحتلال وذهبت إلى غزّة؛ ووقفت مع الشعب الفلسطيني وتحدّت الحظر والتصوير في معبر رفح وصوّرت صوراً مذهلةً شكّلت صدمة للرأي العام السويدي؛ وقُبضَ عليها من قبَل الجيش المصري وتمّ ترحيلها من مصر ولم تعترف بكلمة واحدة ضدي.. فهل يُعقل الآن أن تغدرَ بي!! لا.. لا يمكن ولا أصدق أن تعترف بأيّ شيء أبداً..

ومسيو جان بول هو بالأصل لايعرفُ شيئاً عن لقائي مع الهاربون! فبماذا يُمكن أن يتكلم ليغدُرَ بي!؟

هكذا وضعتُ الأمورَ في نصابها المنقطي، وشعرتُ بالسعادة والرضا لترتيب الأحداث بشكل عقلاني؛ بشكل أرضى غروري بالنجاة من هذا الفخ الّذي نُصبَ لي بعناية كبيرة، ولكن يبقى احتمال واحد ألا وهو ماذا لو كذب أحدهما لينجو بنفسه!؟ مسيو جان بول مثلاً.. فأنا لم أره منذ أربع سنوات، وربما تكون قد تغيّرت طريقة تفكيره وأسلوب حياته، ويكون قد لفّق لي أيّ تهمة لأقع في الفخ وينجو بنفسه!؟ وأرعبني هذا الاستنتاج..

واتخذتُ قراري أنا، وصمّمتُ أن أمضي للنهاية حتى لو كانت بعكس ما أتمنى، على الأقل سيكون قراري صورة طبق الأصل عن شخصيتي أنا...

خبَطتُ يدي على الطاولة وقلت:

– أيّها السادة.. مُذْ جئتُم بي إلى هنا وأنتم تنهالون عليّ بأسئلتكم المُحرجة تارةً والشخصية تارةً أخرى، وكانت لي إجابة واحدة هي الحقيقة، ولاشيء سوى الحقيقة رغم التهديد والترغيب والتخويف، وهاأنا الآن أُعيدُ ماقلتهُ وسأبقى أقوله ولو بعد ألف عام... أنا مُصرٌّ على كلّ كلامي ولا أعرف ماذا قالت إليزابيت!! ولا أعرف ماذا قال السيد جان بول!! ولا يهمني أن أعرفَ ذلك،

كل ما يهمني هو كلامي أنا.. أنا لا أعرف شيئاً عن تنظيم الهاربون، وهذا هو جوابي النهائي.. وصمتت وأنا أتأمل ردةَ فعلهم..

أعترفُ بأنّ أصابعَ قدمي كانت ترتعشُ قلقاً، وكنت أبذلُ مجهوداً جباراً للحفاظ على هدوء أعصابي وأنا أقولُ كلامي وعيني تراقبُ تأثيرَ الكلام على وجوه الحاضرين في محاولةٍ لمعرفة ردة فعلهم، وكان القلق والتوتر يكبران كلّما لاحظتُ الاستغرابَ وعدمَ الاقتناع على ملامحهم؛ ولكن... لم يكُنْ أمامي خيار آخر سوى عبارة شكسبير الشهيرة في مسرحية هاملت: أن أكون أو لا أكون تلك هي المسألة.. وهاأنا اتخَذْتُ قراري وقلتُ كلمةَ الحسم التي قد تُخرجني من هذا المكان اللّعين أو.. تكون حياتي هي ثمن أن أكون!..

هذه المسرحية الخالدة التي بقيت في ذاكرتنا والتي لم أتصوّرْ بأن أعيشَ أحداثها وأكون يوماً في موقف هاملت..

رأيتُ فيفي تُغْلقُ جهازَ الكومبيوتر؛ وتُلَملمُ أوراقَها وتنهضُ برفقة ألكسندر وماركوس وأبراهام؛ وبصُحْبتهم مسيو جان بول.. ليغادروا القاعةَ بدون أن يقولوا شيئاً..

وجدت نفسي وحدي من جديد؛ ولكن هذه المرة كنتُ أشْبَه بمَنْ أوقعَ نفسهُ بالرّمال المُتحرّكة ويحاول النجاةَ بدون أيّ فائدة..

كانت الأفكارُ تتقاذفني والحيرةُ تأكلُني؛ وكنتُ أشعرُ بحاجةٍ لفنجان قهوةٍ وصوت فيروز؛ فرسمْتُ على الورقة فنجانَ قهوةٍ وكتبتُ:

لو كانَ قلبي معي ما اخترتُ غيرَكُم.. ولا رضيتُ سواكُم في الهوى بدلا..
لكنه راغبٌ في مَنْ يُعذّبهُ.. وليس يَقبلُ لا لوماً ولا عَدَلا..
قمرٌ تكامل في نهاية حُسْنه مثلَ القضيب على رشاقة قدّه..
فالبدر يطلعُ من ضياء جبينه والشمسُ تَغْربُ في شقائق خدّه..
ملَكَ الجمال بأسره فكأنّما.. حُسن البريّة كلها من عنده..

يا مَنْ حوى ورْدَ الرياض بخدّه.. وحكى قضيب الخَيزران بقَدّه..
دَعْ عنكَ ذا السيف الذي جرّدتهُ.. عيناكَ أمضا من مضارب حدّه..
كُلّ السيوف قواطعٌ إن جُرّدَتْ.. وحُسامُ لَحْظكَ قاطعٌ في غمده..
إنْ شئْتَ تقتلني.. فأنت مُحكّمٌ.. من ذا يُطالبُ سيدٌ في عبده..

وتأملتُ فنجانَ القهوة؛ وتخيّلتُ مذاقَهُ في فمي؛ وعُدْتُ أقرأ ما كتبته من شعر عنترةَ بن شدّادْ وتساءلت: كيف تجتمعُ قوة عنترة برومانسية العاشق لتولد أغنية بصوت فيروز تعيش مدى العمر!؟..

وفجأة فتحت فيفي الباب وأطلَتْ برأسها تدعوني لمُرافقتها وهي تقول:

– تعال هناك مَنْ يريد أن يراك..

مشيتُ بجانبها وأنا أتوجّسُ شراً؛ وفي قلبي كنت أقول: يارب..

دخلنا مكاناً كبيراً أشْبَه بكازينو؛ ووجدت أمامي جَمْعاً غفيراً من الرجال والنساء؛ ورأيت رجلاً يقف على مسرح وبيده مايكروفون يُرَحب بي ويدعوني إليه...

كنت أقترب من المسرح وأنا في حالة ذهول ممّا أرى:

– هذه إليزابيت ضاحكةً تمُدّ يدها تلامس يدي؛ وهذا فريدريك يضع يده على كتفي؛ وهذا صديقي ملك النبيذ؛ وهذا البروفسور ج . م الخبير الاقتصادي الذي كان لسنوات طويلة يَشْغلُ منصب مستشار اقتصادي للبنك الدولي؛ والذي قال لي باللقاء الأول بأنّ لديه وثائق ومستندات هامة جداً..

– وهذا وزير المالية السابق لإحدى الدول والذي كان على صلة مباشرة بكل العقود والرشاوي وغسيل الأموال في بلده؛ وهذا رجل الأعمال الملياردير الذي كان يُطْلب منه تمويل صفقات الأسلحة غير الشرعية لمنظماتٍ على لائحة الإرهاب الدولي.. وهاأنا أرى الخبير القانوني الذي عمل لسنوات طويلة في الأمم المتحدة وكانت مهمته الوحيدة إيجاد الثغرات لتمرير عراقيل في

تفاصيل العقود والاتفاقيات وكانت لعبته المفضلة بالتفاصيل لهذا كان يحقق مايريده من خلال عبارة السياسيين الشهيرة – الشيطان يَكْمُن بالتفاصيل؛ وها هو عرّاب صفقات الأسلحة لمنظمات ومؤسسات وأفراد؛ وهاهي مسؤولة العلاقات العامة في البنك الدولي والمشرفة على كل العلاقات الإباحية واللاأخلاقية لتوريط رجال لهم قوة ونفوذ؛ وهاهو الجنرال المتقاعد الذي كانت مهمته وضع خطط عسكرية لصالح الجهات والمنظمات التي لديها طموحات سياسية أو عسكرية أو دينية؛ وهذا هو رجل الدين الذي كان وسيط الشيطان ينفذ ما يطلب منه بفتوى يمررها لمن يهمه الأمر ..ولمن يدفع أكثر.. ورجل الجمارك الذي كان يمرر كل ماهو ممنوع وكانت مهمته تمرير كل ما يطلب منه؛ وهاهو الطيار الخاص طيار المهمات الخاصة والمحرّمة وناقل الرسائل الخاصة جداً... وهاأنا أرى في هذه القاعة كل الهاربون من بلادهم؛ البروفسور والوزير وكل أعضاء تنظيم الهاربون الذين التقيتهم في رودوس!! كلهم مجتمعين في حفلة وكأنني في حفل توزيع جوائز الأوسكار..

ووسط عاصفة من التصفيق صعدت خشبة المسرح لأجد نفسي وجهاً لوجه مع البروفسور توماس الذي هرع إلي يحضنني ويعانقني ويضع يده على كتفي ويقول بصوتٍ جهوري مخاطباً الحضور:

– هذا هو ابني الذي سُرِرْتُ به .. وضحك .. ثم عاد يقول:

– لن أسرقَ كلامَ السّيد المسيح؛ ولكن لم أجدْ عبارةً أخرى أُرحّب بها بصديقي الذي أثبتَ بكل مراحل الاختبار أنه إنسان جدير أن نتعاون معه ونساعده ليفهمَ الحقيقةَ..

وبعد عاصفةٍ من التصفيق عاد يقول: حين جاء إليّ في مكتبي بالسويد يطلب المساعدة بمعرفة الحقيقة طلبْتُ منه المجيء إلى رودوس ولقاء الأصدقاء؛ ولكن كان هناك مَنْ يُشَكّك به وبانتمائه، وكان هناك من يتخوّف من أن نكشفَ له أوراقنا كلها وكأنّه عضو معنا.. وأمام المتحمسين له والمتخوفين

كان لابدّ من امتحان صعب وصعب جداً ليتأكد المتخوّفون أننا على حق وأنه يستحق الثقة.. اسمح لي يا صديقي أن أُرحبَ بك مع تنظيم الهاربون الذين كرّسوا حياتهم من أجل خير الإنسان للتكفير عن الذنوب التي اقترفوها خلال مشوار حياتهم السياسي والعسكري والمهني...

وبنبرة صوتٍ عاليةٍ جداً وكأنّه يُقدم مطرباً مشهوراً قال: اسمح لي أيضاً أن أقدم لك رئيس ومؤسس منظمة الهاربون بلاحدود...

من خلال حزمة الأضواء القويّة كنتُ أحاول أن أتبيّن وجه الرّجُل القادم من خلف القاعة الكبيرة؛ وهو يتقدم بخطواتٍ متزنةٍ وسطَ عاصفةٍ من التصفيق المدويّة.. وما كاد يصل خشبة المسرح حتى رأيته يقترب منّي وهو يبتسمُ ابتسامةَ الفرح.. ابتسامةَ النصر.. الابتسامةَ التي أحببتها دائماً..

ابتسامة الحياة والموت.. ابتسامة جان بول.. وصُعقْت !!

كنتُ أتأمّلُ هذا الرّجُل وثمّة فيلم من الذكريات والمواقف تتلاحق في ذاكرتي منذ اللقاء الأول وحتى الآن؛ مروراً بالمواقف الصعبة والنادرة التي عشناها سويّةً، والمواقف المُشرّفة التي رسمت حياةً جديدةً لم تكن متوقعة جعلت العلاقة متميزة بشكلٍ نادر..

احتواني بين ذراعيه؛ وكان عناقاً دافئاً جداً؛ بَكَيْنا سويّةً.. ثمّ شدّ على كتفي وأمسك المكرفون وحين قال: مسا الخير.. أدركتُ لأول مرة أنّ الوقت مساءً.. وتابع كلامه: حقيقةً.. لاأدري ماذا أقول !؟ هل يجب أن أشرح كل شيء؟ أم أكتفي بالترحيب بكم وبضيفنا الغالي!؟

– هل يجب أن أُعرّفكم به !؟ أم أعرّفهُ بكم!؟ حقيقةً لا أعرفُ.. ولكني متأكد أنّه بذكائه عرفَ من أنتم، ومُتابَعتكُم للتحقيق معه صوت وصورة أصبح لديكم صورة وافية وكافيه أيّ نوع من الرجال هذا..

هذا الرجل.. / وأشار بيده نحوي / أنقذَ حياتي من وحشٍ لا همّ له إلّا المال وحياة البورصة والأسهُم والفوائد وصفقات الموت إلى الإنسان.. وهذا يكفي أن أحترمه مدى الحياة.. هذا الرجل كان عرّاب إليزابيت وتوماس وايريك وساندرا ومادلين وغيرهم الكثير وبعضهم معنا هذه الليلة وأنا.. كلنا ندين لهذا الرجل بإنسانيتنا؛ لأنّه كان بالنسبة لنا منقذاً من حياةٍ لا معنى لها؛ حياة كانت تقض مضجعنا كل ليلة؛ وكان مُلهماً لنا بفكرة إنشاء منظمة الهاربون لنعمل في الظل من أجل خير الإنسان والإنسانية ضدّ كل من يسعى إلى تحطيم قيَمها؛ ويسعى للسيطرة على العالم بأساليبٍ شيطانيةٍ ..

هذا الرّجُل رغم إيماني بنزاهته منذ أن أعاد المال للبنك من تلقاء نفسه؛ زرع في قلبي محبة وثقة وصداقة رائعة؛ ورغم التقارير الإيجابية للبروفسور توماس وفريدريك وإليزابيت؛ إلّا أنّ مجلس إدارة منظمة الهاربون أصرّت على إخضاعه لامتحان قاس جداً من أجل كشف معدنه الحقيقي؛ فأثبت للجميع صدقَ التقارير التي كُتبَتْ عنه؛ وأنّه رجل وطني بامتياز .. أريد أن أقدم له باسمي واسمكم جميعاً اعتذاراً علنياً على الامتحان الصعب؛ وأدعوه لإلقاء كلمة..

وأعطاني المايكرفون ووقف بجانبي..

حالة الارتباك والغضب التي انتابتني في بادئ الأمر تلاشَتْ مع شفافية كلمات جان بول؛ وتصفيق الحضور وترحيبهم جعلني أفكر وأتساءل: ماذا يمكنني أن أقول !؟

أمسكتُ المايكرفون وأنا أتأمّلُ وجوهَ الحاضرين في محاولة بحث عن وجوه قد أعرفها تعطيني بعض القوة والثقة بالنفس وفعلاً وجدتُ إليزابيت تجلس مابين فريدريك وتوماس ووجدت فيفي تجلس بكامل أناقتها مع ألكسندر ووجدت زوجة جان بول وبناته اللواتي لوّحن لي بأيديهنّ.. ابتسمت.. من غياهب التعب والقهر ينبلجُ نوراً تستفزّه إنسانيتي التي تملّكت الروح والجسد؛ واندثرت في عمق

قلبي لتضخّ في شراييني قوةً تعمدّت بالرحمة وإرادةً تضمّخت بالصبر.. في أقسى المواقف وأصعبها تتردّد في وجداني ألحاناً متناغمة تُبعثرُ في حنايا ذاكرتي كل ما قهرني وما أفرحني وما دفعني إلى حب الحياة بكل متناقضاتها..

الكلّ يفكر في تغيير العالم.. لكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه... هكذا قال الروائي الروسي ليو تولستوي..

وبمنظوري أنه حين يتواجد من يرغبون في تغيير أنفسهم ليتغير العالم من خلالهم نعلم أنّ الإنسانية مازالت باقيةً في نفوس هؤلاء وبذور الخير في قلوبهم بانتظار غيثٍ يُنعش رشيمها المُتشوّق للعطاء..

حين تعلم أنك كنت قطرات الغيث المُنْتَظر..

حين تعلم أنك كنْتَ المُستفزّ لإنسانية أحدهم..

تهونُ عليك كل المَشقات وتنفض عنك غبار التعب وأنت تسمع صوت الضمير يصدح في وجدانك: عليك أن تستمر.... ابتسمت.. وقلت:

- أريد أن أرى الشمس.. وصَمَتُّ قليلاً.. وتابعت: نعم أريد أن أرى الشمس.. الشمس هي رمز لكل شيء حقيقي؛ وأنا جئت هنا لأسمع وأرى وألمس الحقيقة.. أنا من وطن الشمس سورية مهد الحضارات الإنسانية التي تتعرض اليوم لأقسى وأوسخ حروب الإبادة من أجل حجب شمس تاريخها وحاضرها ومستقبلها لتبقى في خضم الظلام.. ظلام التكفير والتخلف والجهل والموت..

أنا من وطن لمن ليس له وطن.. أنا وأنت وأنتم جميعاً تنحدر أصولنا من سورية.. فإذا كنا كلنا من سورية فلماذا بأيدينا ندمر تاريخنا وحضارتنا وإنسانيتنا !؟.. من أجل ماذا!؟.. كل ما فهمته هو من أجل السيطرة ونشر الفوضى الخلاقة وتقسيمها من أجل إخضاعها بالقوة.. هل يستحق هذا كل هذا الخراب؟؟ هل يستحق تدمير الإنسان والإنسانية لأجل أن تتم السيطرة؟؟ وماذا تفيد السيطرة حين يتم تدمير القيم الإنسانية والأخلاقية!؟ حين أتحدث عن سورية بلدي وموطني؛ فأنا

أتحدث عن الإنسان في كل مكان وزمان.. فما يصيب سورية والإنسان السوري سيصيب العالم أجمع... أنا لن أنتمي لكم؛ ولن أكون واحداً منكم؛ ولن أنضم لتنظيمكم حتى لو كان لكم نفس رسالتي لسبب واحد يعرفه كلّ من يعرفني جيداً: أنا لا ولن أنتمي إلا لسورية الأبيّة؛ سورية العزّة والكرامة؛ سورية التي غادرتها منذ أكثر من ربع قرن ولكنها لم تغادرني ربع يوم.. كنت أسكن فيها؛ وفي غربتي اكتشفت بأنها تسكن في قلبي وروحي؛ ولم تغادرني كما غادرتها هل تعرفون لماذا!؟ لأنها ربتني مجاناً وعلمتني مجاناً وأعطتني شهادتي مجاناً وقدّمتني للعالم إنساناً.. هذه هي سوريانا.

والآن أريد أن أرى الشمس.. وتركت المايكرفون وسطَ عاصفة من التصفيق وهمَمْتُ بمغادرة القاعة حين استوقفني جان بول قائلاً: لن تستطيع رؤية الشمس في الليل دعنا نؤجل هذا للصباح..

قلت له: لا يهُمْ.. سأكتفي برؤية قمر السماء، أشعر بالاختناق وبحاجةٍ للكثير من الهواء..

رافقني جان بول قائلاً: تعال يا صديقي.. وصعدنا أنا وهو مصعداً كهربائياً؛ ثم صعدنا درجاً حديدياً؛ ووجدت نفسي على سطح باخرة..

وحين رأى علامات الاستغراب على وجهي قال: نعم نحن في البحر.. وصُعقت.. وقفت فاتحاً ذراعيّ لنسمات الهواء أتأمل عناق القمر لسطح البحر في مشهدٍ رائعٍ وشاعريٍّ ذكرني بالحُب الذي يقهرني كل مرّة فأكتب بعد كل قصة حب فاشلة: كل جرح في قلبي صنعته امرأة، وكل تنهيدة في صدري سببها امرأة تمددت على خارطة جسدي وامتلكته وطناً وجيوشاً عربدَتْ فيها كما تشتهي ثم انسحبت مُخَلّفةً وراءها جسداً مُمزقاً مطعوناً أشلاءً؛ وعيوناً تفترسُ الدّمَ الموبوءَ ناراً بقلبي؛ وحيرةً وعلامةَ استفهام؛ وكان القمرُ خير الشاهدين... ورميتُ بجسدي على أقرب كرسي وجلست أتحسّسُ الأرضَ كما فعلت أول مرة في تلك الغرفة الصغيرة ووجدتها خشبية والحيطان معدنية..

كنت أفعل ذلك وأنا أُردّد بتعجُب: سفينة !!

جلس بقربي قائلاً: نعم سفينة.. منذ أن عملت بالبنك الدولي؛ ورأيت ما رأيت من أهوال كنت أخجل من نفسي كلما كنت أتذكر كلامك؛ حتى قررت الاختفاء والإيحاء للجميع بأنني شخص ميت.. وأسّستُ منظمة الهاربون وأنا أعيش غريب الاسم والهوية والعنوان..

سألته: كيف التقيت بكل هؤلاء وأنت مختف وميت و... قاطعني قائلاً:

من خلال الشخصيات التي كنت أعرفها؛ وهم كانوا يعرفون المُقرّبون من الحلقة الضيّقة حتى أصبحنا منظمة الهاربون..

وكدت أسأله عن المزيد حين وصل توماس وإليزابيت التي اقتربت مني تساعدني على الوقوف، ودعاني البروفسور توماس لأن ثمّة ضيوفاً يريدون رؤيتي والتعَرُّفَ بي عن قُرْب.. فهمستُ في أذنه قائلاً باللغة السويدية: توماس أريدُ الخروج من هنا.. أريد العودة لبيتي وعائلتي..

فابتسم بلطفٍ وهو يصافحُ أحد الضيوف وقال:

– تَذكّرْ أنك جئت من أجل الحقيقة؛ وخُضْتَ كل هذه المشقّة والامتحان من أجل الوصول للحقيقة؛ وهاأنت تقفُ أمام بابها، وليست أيّ حقيقة.. بل الحقيقة السورية.. هل تطرقه وتدخل أم تعود من حيث جئت وتنسى كل شيء !؟

سحَبْتهُ من يده بعيداً عن الآخرين وقلتُ له بغضب:

– أرجوك لا تُدْخلني في متاهةٍ أُخرى.. أكادُ أفْقدُ توازني وصوابي؛ ولم يَعُدْ لديّ القدرةَ على تَحمُل المزيد.. أريدُ العودةَ لبيتي والنوم طويلاً؛ وسأعتبر أنّ كلّ ما رأيته كان مجرّد حُلماً، حُلمَ ليلة صيف...

قال وهو يُرّبتُ على كتفي: كما تريد يا صديقي.. سنذهبُ الآن لتناول العشاء وغداً سنرى الشمسَ سويةً ونشربُ قهوةً سورية.. وتعودُ إلى بيتك ونُنْهي

كل شيء هنا؛ وسأُخبرُ مريم أن لا تنتظرك.. ومشى.. لَحقتُ به.. أوقفته وسألته باستغراب: مَنْ مريم!؟

قال: وماذا يعنيك من أمرها.. أنتَ قررتَ الاستسلام والخروج من هذه الدوّامة وتريد العودة إلى حياتك وعائلتك، ولم يَعُدْ يهمك أن تقرعَ البابَ وتدخل لتعرفَ حقيقةَ ما جرى في سورية!؟..

صرخت: هذا ليس صحيحاً.. وحين وجدت الآخرين ينظرون إليّ.. خفضْتُ صوتي وقلت له: هذا ليس صحيحاً.. أنت تعرفُ بأنني أريدُ الحقيقةَ منذ أن جئت إليك في مكتبك بالسويد وحدّثتني عن الفرومكا.. أتذْكُر!؟

قال ضاحكاً: أنا أذكرُ يا صديقي ولكن هل تذكر أنت!؟

قلت مؤكداً: طبعاً أذكر ولهذا جئتُ هنا لمعرفة الحقيقة..

قال: ولكنك الآن تريد الانسحاب!!

قلت: لأني تعبت .. تعبت..

قال: كلنا متعبون وهاربون ومن أجل الحقيقة مُطارَدون ولكنّنا لسنا نادمون..

صمتَ قليلاً ونظرَ في عيني نظرةَ تحدي قائلاً: مثلك!!

قلت: أنا لستُ بنادمٍ ولكني مُتعَب وأرى أني كُلما عرفتُ شيئاً جديداً أتعبُ أكثر.. هل المعرفة وجع!؟

قال: طبعاً.. المعرفة وجع؛ فكلما عرفْتَ أكثر كلما توجّعْتَ وتألمْتَ أكثر وأكثر..

سألته وأنا على مائدة العشاء: من هي مريم!؟

قال: استمتع بالعشاء الآن؛ وقرع كأس النبيذ فصمت الحاضرون؛

وقال: بصحتكم جميعاً وصحة صديقنا العزيز الذي سيُغادرنا صباحَ الغد..

فقاطعته قائلاً:

- بصحتكم جميعاً؛ ولكن لن أُغادرَ قبل أن أعرفَ مريم من تكون!؟

فرفعَتْ إليزابيت كأس النبيذ قائلةً: بصحة مَنْ قرّرَ أن يبقى..

وبين أصوات قرقعة الكؤوس وضحْكَة إليزابيت وهي ترفعُ لي إصبعَ الإبهام؛ اتخَذْتُ قرارَ التّحدي:

سأبقى وسأفتحُ البابَ بقوة لأعرفَ سرَّ مريم.... فمَنْ تكون!؟.....

كانت ليلةٌ عاصفةٌ بالمشاعر والأحاسيس، قويةٌ بالإصرار والتّحدي، غريبةٌ بالمُفاجآت غير المتوقعة، حافلةٌ باللقاءات بشخصياتٍ كنتُ أقرأ عنها أو أراها على شاشة التلفزة أو في نشرات الأخبار؛ وهاأنا الآن أراهم هنا هاربون تخلوا عن كل شيء واحتفظوا بضميرهم وإنسانيتهم...

وليلة رائعة بلقائي مع عائلة جان بول وخاصةً زوجته التي جاءت تقول لي:

هل عرفْتَ الآن لماذا كنت أشك دائماً برواية وفاة زوجي!؟

هزَزْتُ برأسي بالإيجاب واعتذرتُ من الجميع وذهبت للنوم..

وما إن ألقيتُ بجسدي المُنْهك على السرير انهالت على رأسي المُثْقل بالأحداث والمُفاجآت كلّ الهواجس التي حملتها معي في رحلةٍ لم أتوقعْ أحداثها ولم أتخيّلْ مشقّتها؛ كنت أعلم صعوبةَ المهمة إلا أنني تعثّرتُ بقسوة البحث عن حقيقةٍ أدْغمَتها أصابعُ الشيطان في فحم خُبثها وقتلت بريقها الماسي في سواد مكرها، وهنا أغمضتُ عيني كطفل أنهكه مسير يومٍ طويل؛ وأتعبَ قلبه النابض بالحياة هَوْلَ المفاجآت... لتستفيض روحي بفيض حنين أشعلته ذاكرتي التي حملت صورة وطني المُنهك المُكابر على أوجاعه بالصمود.... لأجد نفسي في ربوع محردة البلدة الوادعة في قلبي ووجداني.. محردة التي استقيت من نبعها معاني الجمال وقداسة العشق ومعنى الحياة... غفوتُ على نسمات ذاكرتي واسترخيتُ على دفء وطني وأنا أُردّدُ ما كنت أقوله في غمرة التعب:

عاشرت الصبر وعاشرني

كرهته... ولم يكرهني..

وعندما كبرت .. وأدركت أن عقل الإنسان في الصبر

فهمت لعبة القدر..

فشكرته؛ ولم يشكرني..

بل أفهمني؛أن أشكر محرده مدينتي

لأنّها أول من علمني أبجدية الصبر....

مرمريس فندق لازور بلازا الساعة ١١ صباحاً..

جلَسْتُ في بهو الكافيتريا أتناولُ فطوري وأقرأُ لمحةً عن تاريخ الجزيرة حين وصلَ البروفسور فريدريك وإليزابيت وأخبرتهم أنّ مالفتَ انتباهي في تاريخ هذه الجزيرة ليس الحضارات المتعاقبة التي مرّتْ عليها مثل حضارة الفرس ومقدونيا والرومان والبيزنطية والسلجوقية وآخرها العثمانية؛ بل حضارة الممالك السورية التي تركت بصمتها على هذه المدينة..

فقال فريدريك مؤكداً: طبعاً.. ألم نتفق بأنّ سورية هي مهد الحضارات الإنسانية؟.. إشرب قهوتك يا صديقي واستمتع بأشعة الشمس؛ وسنتحدث بهذا بعد الغداء.. وأضاف: بل مريم ستحدثك بنفسها.. سألته: أين!؟ ومتى!؟

قال: قليلاً من الصبر يا صديقي.

قلت له وأنا أُغنّي أم كلثوم: للصبر حدود يا حبيبي.. وضحكنا وذهبنا لغداء عمل حضَرهُ جان بول والبروفسور توماس والبروفسور فريدريك وإليزابيت وفيفي والكسندر..

وبعد حديثٍ استمر لأكثرَ من ساعة تقرّرَ أن أعودَ إلى جزيرة قبرص لأُكملَ ما تَبقّى من إجازتي بهدوء لتكون فترة للراحة والاستمتاع بالشمس والبحر، وأن يغادر البرفسور توماس وإليزابيت إلى السويد، وفيفي والكسندر إلى أوروبا لتحضير لقائي مع مريم.

مرسيليا – فرنسا..

وصلتُ مطارَ مرسيليا صباح ١٨ تموز، وأخذتُ تاكسي مباشرةً لفندق هوليدي آن إكسبرس؛ وجدتُ حجزاً باسمي لمدة يومٍ واحدٍ؛ فأدركتُ أنّ زيارتي قصيرة جداً.. ورسالةً صغيرةً.. أوصيتُ فنجانَ قهوة وصعدتُ إلى غُرفتي وقرأتُ الرسالةَ:

– الحمدلله على السلامة.. نحن في انتظارك الساعة الواحدة في هذا العنوان: Notre-Dame de la Garde Rue fort du Sanctuaire - 13281

قبلَ الموعد المحدّد غادرتُ غرفتي وسألت الاستعلامات عن العنوان فنصحني أن أستقل قطار السوّاح بالقرب من الميناء.. وهذا ما حصل ووصلت إلى قمة القلعة بعد طريق ساحلي جميل لأجدَ كنيسة أحدَب نوتردام الرائعة.. وتجوّلتُ في كل الاتجاهات فلم أجدْ أحداً بانتظاري..

بعدَ ساعة من الانتظار المُملّ رغْمَ المشاهد الرائعة من سفح القلعة باتجاه البحر عُدْتُ إلى الفندق وأنا في حَيْرةٍ من أمري؛ وصعدْتُ غرفتي لأجدَ رسالةً سبّبتْ لي إحراجاً!

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م
عدد الطبع ١٠٠٠نسخة